الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٢٤ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 124.

Lundi-18-11-1935

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٢٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ شعبان سنة ١٣٥٤ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

على هامش الموضوع

فى الجمـــــال ؟ !

حاولت أن أتابع البحث (فى الجمال) فنبا علىّ الفكر ، وشرد عنى الخيال ، واستبهم أمامىَ المسلك . وكيف يستطيع أن يبحث فى الجمال من يرى القبح الشنيع قد هجم على المشاعر من وراء البحر ، فآذى الأحداق ، وسمم الأذواق ؟ وشوه كل منظر ؟ ومَن أقبح من قادر يختل ، ومعاهد ينكث ، وصديق يروغ ، ومتمدن يعالن الناس بسخف الذمة ، وذائد عن الحق يتبجح باهتضام الحق ، وغارق فى الثراء يتحلب ريقه على كفاف الفقير ، وكابوس من الأنس يجثم على صدرك نصف قرن ، تريد أن تزحزحه فيثقل ، أو تخاطبه فيغبى ، أو تغاضبه فيبرد ؟

إن فى بعض أعمال اللصوص جمالا إذا نمّت جراءتها على القوة ، أو دلت حيلتها على الذكاء ؛ ولكن أى جمال فى صوت يتحنن بالرياء فى (جنيف) ، ويتخشن بالعداء فى (جلد هول) ، ثم لا يختلف فى مقامه وقراره عن عواء الذئب فى روما ؟ أليس هذا وذاك مظهرين وضيعين قبيحين من ضراوة الحيوانية فى الانسان الضعيف ؟

فهرس العـــــدد

على أن من يسطو وفى يده الخنجر ، أدنى إلى الرجولة ممن يسطو وفى يده المسبحة ؛ لذلك كانت قهقهة (الدوتشى) من تصريح (هور) سخرية أليمة ، خنس لها الرياء ، وخجل منها الدهاء ، وفرت أمامها الحجة !

* * *

الحياة جميلة ؛ ولكن هذا الانسان يلونها بلونه فتقبح ؛ وقد جاهد المرسلون والمصلحون أن يجلوها على صبغة الله فعجزوا أمام بغيه وجشعه !

ماذا يبتغى الانسان من الانسان إذا كان يفسح له فى أرضه ، ويُفضل عليه من رزقه ، ويقول له : هواك هواى ، ورضاك رضاى ، وعدوك عدوى ، ولكن لى وطنى ولك وطنك ، فلينم كلانا بسلطانه الطبيعى على ما يملك ، وليكن بيننا ما بين الحليف والحليف من تعاهد فى شرف ، وتعاون فى استقلال ، وتعامل فى حرية ؟ هذا كلام على بساطته وصراحته ووضوحه ما يزال يعجز الأفهام فى أمة تفاخر بالعلم والحكم ، وتباهى بالديمقراطية والعدل ؛ لأن الأنانية المسلحة إذا عصفت فى النفوس غشت على الحواس فلا تشعر ، ورانت على الأذهان فلا تدرك ، وانبهم فى الخواطر مفهوم الفضيلة فى الانسان ، ومدلول الجمال فى الطبيعة ، فلا تدرك من معنى البحر غير الأسطول ، ولا من دلالة الأرض غير الجيش ، ولا من جمال الموقع غير الإستعمار الوقح

من شذوذ هذه العقلية الغالبة فى الغرب ما نعانى ويعانى الشرق من أرزاء ومحن !

ومن شذوذ هذه العقلية الطاغية ما تصبّب أمس من نفوس الشباب على أديم الأرض ! فدحتهم تركة الآباء الغارمة ، وأحفظتهم سياسة الأصدقاء الجارمة ، فغضبوا للحق الطعين ، وفزعوا للأمل المخيَّب ، ففاضت أرواح طاهرة ، ودميت وجوه حرة ، وضجت بالأنين مستشفيات ، وجأرت بالشكوى سجون ، وتجاوبت بالحزن بيوت ، وتألف من هذه السطور الحمر صفحة بيضاء من تاريخنا الوطنى الحديث

* * *

جف اللسان وحفى القلم من استجداء القانون واستصراخ العدالة ؛ والقانون والعدالة كلمتان لا تعنيان إلا إرادة القوى ومنفعة الغاصب ؛ فاذا لم يكن بجانب الحق قوة تؤيده ، وبازاء العدل سلطان يقيمه ، كان استمساك الضعيف بهما استمساكا بالهباء المنتثر !

إذا أعوزتك اليوم قوة السلاح فلا تعوزك قوة الخلق ؛ وقوة الخلق ميسورة لك متى أقنعت نفسك بأنك إنسان له إرادة قبل الوظيفة ، وكرامة فوق المال ، وواجب مع الحق ، وتاريخ بعد الموت . وقوة الخلق هى التى تجعل للأمة كلمة لا تتعدد ، وسياسة لا تتردد ، ومهابة فى الصدور تكسر من طرف المحتقر ، وتكف من شرة الطامع ، وتصد من عادية الدخيل

جربنا كل شىء فى جهاد العادين فما أغنى عنا جهاد ولا تجربة ، لأن العُدة كانت قوية إلا من ناحية الخلق . وإذا لم يكن الخلق كانت الشهوة والأثرة والتحاسد والتخاذل والتواكل والهوى ؛ وهذه الرذائل مجتمعة ومتفرقة كانت فى مدى أعوام الجهاد الستة عشر وباء ذريعاً تسلطه الأقدار من حين إلى حين على جهود الشباب فيفنيها ، وعلى آمال الأمة فيذويها ، ثم يقطع ما بيننا وبين الزمن المتقدم فنسقط فى هوة الماضى على الموقف الأول

* * *

ها نحن أولاء على جلَد الصخرة التى وثبت من فوقها الأمة : وراءنا الهدنة التى قُسمت عليها الأسلاب ووُزعت بينها الغنائم ؛ وأمامنا أطلال من الجهود العافية ، وأنقاض من الأمانى المحطمة ؛ وعن أيماننا وعن شمائلنا آثار أقوام كانوا قبلنا فغبّروا فى وجوهنا وانطلقوا خفافاً متساندين إلى الأمد البعيد . فهل لسادتنا الذين يتولون استئناف الجهاد أن يجربوا فى قيادتهم قوة الخلق ؟ إنهم إن فعلوا ذلك أمنوا ولا ريب نكسة العلة ، وردّة الهزيمة ، وضلة الطريق . جاهدوا أنفسكم قبل أن تجاهدوا العدو ، فان من لم ينتصر على نفسه لا ينتصر على غيره ، ومن لم يقد نفسه الواحدة ، لا يستطيع أن يقود النفوس المتعددة

احمد حسن الزيات

٦ـ كلمة وكليمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أصوبُ الصوابِ عند المأفون غلطةٌ تجلبُ له الشهرة

***

يرى المغرورُ أنه كالمسجد ، إذا هدمه الناسُ بقيت أطلاله تصلى وتسلم على نفسها . . . .

***

عقلُ النملة يصوّرُ لها ظلام الليل جيشاً من النمل قد ملأ العالم . . . .

***

تعدُّدُ الأحزاب فى أمة تحتاج إلى الحريةَ ، كتعدد الأنبياء فى أمة تحتاج إلى العقيدة ؛ إذا وجد فيها نبيان كان اتفاقهما معاً دليلاً على كذبهما معاً ، وكان أقل ما فى اختلافهما أنه دليل على كذب أحدهما

***

إنما أضعفَ السياسيين فى الشرق أن ربحهم وخسارتهم من (الوظائف) لا غير

***

من مصائب هذا الشرق أن الخصامَ السياسيَّ فيه لا يدلُّ على سياسة ... تبرّأ متبوعٌ من تابع فاختصما ، فكانا كرجُل وحذائه ؛ يقول الرجل : أنا خلعتُ الحذاء ، ويقول الحذاء : بل أنا خلعت الرجل ...

***

إذا كانت المشكلةُ بين الذئب والحَمَل ، فلن يكون حلها إلا من أحد اثنين : إما لحم الخروف ، أو عصا الراعى .

***

كلُّ دجال له أساليبُه التى صار بها دجالا ، وليس للمنخدعين إلا أسلوبٌ واحد فى الغفلة ؛ وشرٌّ من الشرِّ تعدُّدُه ...

***

إذا اصطنعتَ سفيهاً يُسافِهُ عنك ، فاحذَرْه لليوم الذى لا يكون فيه سفيها إلا عليك

***

من أحسَنِ تخلُّق المرأة أحسنَ إخفاءها لا تخلُّقَها .

***

ما رأيت امرأةً حمقاءَ إلا كان حمقُها من سخفه كأنه امرأةٌ أخرى حمقاء ...

***

إذا أحببتَ ففكر فى البغض لعله يكون ، وإذا أبغضتَ ففكر فى الحب لعله يعود ؛ بهذا وهذا تكون دائما محباً وان أبغضت

***

ما أعجبَ تناقُض المرأة ! هى تريد أن تستقلَّ فتخرجَ عن طاعة الرجل ، وهى لا تسعد إلا حين تجد رجلاً تشعر من حبه بوجوب طاعته

***

من بلاءِ الحب أنه ينزِّه جمالَ المحبوب عن كل عيبٍ وكل نقص ؛ ولكنه بذلك يدفع طبيعةَ العاشق إلى البحث عن كل نقص وكل عيب فى أعمال المعشوق

***

قاعدةُ الرجل مع المرأة التى يحبها أن تنتصر إرادتُه وإن ذلت كبرياؤه ؛ وقاعدة المرأة مع الرجل أن تنتصر كبرياؤها وإن ذلت إرادتُها

***

سؤالٌ فيه جوابه : لماذا يكون حَقدُ المرأة الخائبةِ فى حبها حقداً شديداً على الرجل الذى أحبته حتى كأنه حقدُ أمٍّ على قاتل أطفالها . . . ؟

***

المرأةُ التى لا زوج لها منفيةٌ وإن كانت فى دارها ، لأن وطن قلبها الرجل

***

إذا استسلمت المرأةُ لحبها ظنت الحبَّ قد ابتدأ ، وعلِمَه الرجلُ قد ابتدأ ينتهى . . . أذاك فرقُ ما بينهما فى الحب أم فرقُ ما بينهما فى الظلم ؟

***

ما أعجبَ هذا ! أرادت حبيبةٌ ظريفةٌ أن تكون مرةً سخيفةً عند محبها ، فلم تستطع أن تكون سخيفةً إلا كما يحب

***

ماهو السُّلوان فى الحب ؟ هو رجوعَ العقل من سفره الخيالىِّ فى جسم المحبوب

***

٢ – مدينة الزهراء

وحياتها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة البحث

وقد انتهت الينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة تنبىء عما كانت عليه من الضخامة والفخامة ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفا ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه ؛ وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها (١) . وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوى أو قصر الڤاتيكان الشهير برومه وما انتهى اليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فان هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم يحتوى على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير

(١) نفح الطيب ص ٢٦٥

— ٢ —

ولم تعمر الزهراء طويلاً كقاعدة ملوكية ؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية ؛ فقد ترك الحكم الملك لابنه الوحيد – هشام المؤيد – وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة ؛ وسرعان ما استولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبى عامر على مقاليد الحكم بمؤازرة صبح أم المؤيد ووصية العرش ، ولم يمض قليل حتى استأثر ابن أبى عامر بكل سلطة ورياسة فى الدولة ؛ وفى سنة ٣٦٨ هـ أنشأ له ضاحية ملوكية جديدة بجوار قرطبة على نهر الوادى الكبير وأسماها الزاهرة ، وجعلها قاعدة الحكم ، ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة ودوائر الحكومة ، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا فى عهد مؤسسها وخلفه الذى اكمل بناءها . وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق لهم بعد ذلك من الملك سوى الاسم ؛ وقد بقيت الزهراء حيناً آخر مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه ، ولكنها فقدت إلى الأبد أهميتها السياسية ، وروعتها الملوكية

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . فى سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) زحف سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من المؤيد وواضح الحاجب المتغلب عليه ، ثم هاجم مدينة الزهراء واقتحمها ، وفتك أنصاره البربر بسكانها ، وعاثوا فى

الرذيلةُ الصريحةُ رذيلةٌ واحدة ، ولكن الفضيلةَ الكاذبةَ رذيلتان

* * *

يرى الملحدون أن من حقهم أن يعملوا فى النفس الانسانية كما يعمل أهل الدين ؛ فهل من حق أصابع الرجلين أن تمشى على البيانة (١) كأصابع اليدين ؟

* * *

لكل إنسان عقلٌ تحكمه الغريزة ، وحقيقةُ الدين أن يكون للغريزة عقلٌ يحكمها

* * *

إذا جئتَ بالنكتة وبالغتَ فيها ، كنت كمن أضاء المصباح وأطفأه حين أضاء

مصطفى صادق الرافعي

(طنطا)

(١) هى تعريب (البيانو) وجمعها بيانات بكسر الباء

معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ؛ والظاهر أن الضربة كانت قاضية ، فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة سوى أطلال دارسة ، ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ؛ وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها وحي الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد تغزل بجمالها وفخامتها جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك في مقطوعات مؤثرة ؛ ومما قاله ابن زيدون أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء وروائع ذكرياتها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل
أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة — أجلت المعاني في الأماني بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح — تقضت مبانيها مدامعه سفحا
مقاصر ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها لي الوهم جهرة
فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه
إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى
هناك الحمام الورق تندى خفافها
ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا (١)

ونقل إلينا الشيخ محي الدين بن العربي (٢) أبياتاً قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء في المدينة الشهيرة وهي :

ديار بأكناف الملاعب تلمع — وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب — فيصمت أحياناً وحيناً يرجع

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها في ترجمته في « قلائد العقيان » للفتح ص ٧٢ .

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري ؛ وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات في كتابه الشهير محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار

فخاطبت منها طائراً متفرداً — له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي — فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثي الفتح معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض إطرابها ، والوهي بشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد . . . » (١)

ويحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهراء – وقد زارها أيام الحكم – فيصف موقعها ، ويقول إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وأن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلد (قرطبة) في المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذالا لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلي ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع » (٢) .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر) وقد ذكرها الشريف الادريسي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في منتصف القرن السادس وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال (٣) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في أوائل القرن السابع الهجري (٤) . وفي سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ، ونكبة الاسلام بسقوط قرطبة في يد النصارى ، فطويت بذلك أسطع صحف الاسلام وصحف الخلافة في الأندلس ؛ وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها

(١) راجع قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨

(٣) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة – ص ١٩٣

(٤) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١

الخلافية القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سـقوط قرطبة في يد النصارى عصراً يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومعاهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجدها الباهر الذي حوله الأسـبان منذ افتتاحها إلى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهت بذلك معالمه ومناظره الأولى ، ولـكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مزكيتا » Mesquita أي المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من معاهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالمها منذ عصر بعيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب ، في شمال غربي قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la viesa ؛ ويقوم إلى جوار موقعها القديم إلى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بني بانقاض قصر الزهراء (١) وقد عنيت الهيئات الأثرية الأسبانية في العهد الأخير باجراء الحفر في تلك المنقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالمها الحقيقية (٢)

وقد كان لهذا المصير المحزن الذي انحدرت اليه مدينة الناصر بسرعة مؤسية شبيه بين مصاير القواعد الملوكية الاسـلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطائع الملوكية التي أنشأها ابن طولون إلى جانب الفسطاط ، وأسبغ عليها ولده خمارويه آيات رائعة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تمحى القطائع بين يوم وليلة ، بعد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فـكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق في العظمة والمنزلة السلطانية ، وفي ظروف العصر ، وصروف الأحداث ؟

محمد عبد الله عنان

(١) Ency. de l'Islam-Cordoue

(٢) راجع في تاريخ الزهراء وأخبارها وأوصافها : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ والمسالك والممالك لابن حوقل — ص ٧٨ و ٧٩ ، وياقوت في معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضاً Dozy : ibid, II, P. 174
Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172

مذاهب الفلسفة

٢ــ المذهب الطبيعي *

للأستاذ زكي نجيب محمود

إذن فالجامد والحي شيئان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحـدة هي الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التي يصادفها المذهب الطبيعي هي هـذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعي فتنجو به من هـذا المأزق المسير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل

أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليما وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخـذ يبحث فيما يطرأ على الحياة من تغير وتحول ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الـكائن الحي قد تسلسل من كائن حي قبله ، وهذا من كائن حي قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد في بحثه على أن تتبع حلقات الانصال بين أنواع الأحياء أي بين الـكائنات السفلى والـكائنات العليا ، وإذن فدارون لم يقدم في نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعي ، وهي ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

ثم جاء في أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحجة على أن الحياة إن هي إلا ضرب من ضروب المزيج الـكيميائي بين أجزاء المادة ، فاذا كنا نبغي الوصول الى الحلقة التي تصل الحياة بالجماد ، فما علينا إلا أن نلتمس علماء الـكيمياء ! ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم في عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(*) يحتاج بعض ذوي العقول الضعيفة أن ننبه إلى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، وبديهي أنها لاتعبر لـكاتبها عن رأي خاص

الشقة الفسيحة التي توهمها الأولون ، فالفرق كل الفرق بينهما اختلاف في درجة التعقيد والتركيب . أما العقل فضرب من ضروب الطاقة كالحرارة والكهرباء والضوء

ولكن ما بالنا نركب رءوسنا فلا يرضينا إلا أن يقوم الدليل على أن العقل قد نشأ من الجماد نشأة تدريجية معقولة وإلا كان الأمر في أعيننا لغزاً مغلقاً ؟ فلم لا تكون الحياة قد خرجت من الجماد خروجاً فجائياً مباغتاً بغير مقدمة ولا تمهيد ؟ قلب النظر في جوانب الكون تر آلافاً من الأشياء التي جاءت إلى الوجود من غير مقدمة منطقية ؛ خذ طعم الملح مثلاً وسائل نفسك من أين جاء ؟ هو لم يكن في عناصر الملح الأولى التي من مزيجها نشأ الملح ، وإذن فقد جاء هذا الطعم الذي نعرفه للملح طارئاً مباغتاً . فلماذا لا تكون الحياة ولا يكون العقل قد نشأ كلاهما على هذا النحو ، فيكون لهما من الخصائص ما ليس لعنصرها الأول : أعني ما ليس في مادة الطبيعة الجامدة . . . تلك حجة جديدة يؤيد بها أنصار المذهب الطبيعي رأيهم

ولكن دعك بعد هذا كله من تطور العقل سواء أكان تدريجياً أم مفاجئاً ، وحسبنا أن نأخذه كما هو بين أيدينا . فهل يستطيع المذهب الطبيعي أن يفسر كيف يعمل العقل ؟ كيف يمكن لقطعة من اللحم أو الشحم أن تخلق فكراً وتبدع خيالاً كما نرى ؟ إنه ان استطاع أن يعلل ذلك هان عليه بعد ذلك كل شيء ، ولهذا تراه اليوم يجاهد جهاد الأبطال في ميدان علم النفس لعله واجد عنده نصيراً وظهيراً ؛ وها هو ذا علم النفس منذ منتصف القرن الماضي ينحو في بحثه نحواً فسيولوجياً ، أي أنه يعتبر العقل وظيفة للمخ لا أكثر ولا أقل ، فهو لذلك خاضع كبقية أعضاء الجسم لقوانين العلة والمعلول . وكثير بين علماء اليوم من يزعم أن كل ظواهر الانسان الروحية والعقلية لا تعدو أن تكون نتائج كيميائية لبعض افرازات الجسم . وليس بعيداً عن هؤلاء أن يحين الحين الذي يسيطر فيه الانسان على قواه العقلية ، بأن يبتكر طعاماً معيناً يفرز إفرازاً خاصاً يرفع القدم الوضيع إلى مرتبة الفلاسفة والحكماء ! !

المذهب الطبيعي والدين :

لما كان أنصار هذا المذهب يتشبثون بالطبيعة وحدها ، فهم ينكرون أشد انكار أن يكون وراءها أية حقيقة أخرى ، وبعبارة موجزة واضحة : هم ينكرون الدين وكل ما يتصل بالعقيدة الدينية من حقائق لا تمت إلى ظواهر الطبيعة بسبب من الأسباب . فان ساءلتهم قائلاً : إن كانت العقائد ضلالاً في ضلال فما الذي حدا بالانسان بادئ ذي بدء أن ينظر إلى العالم بمنظار روحي ، ومن أين جاءه هذا الاتجاه في التفكير ؟ أجابوك إنه خطأ بشري ككل ما يقع فيه الانسان من أخطاء ، ولكنه في رأيهم خطأ واجب مفيد لم يكن للانسانية عنه بد في حياتها الأولى

إنما ينشد الانسان الحقّ في الرأي لا لشيء إلا أن تكون الحقيقة عوناً له في طريق الحياة ؛ إذ الفكرة الصائبة توضح السبيل وتيسر الطريق ، وتعمل على استمرار البقاء واجتناب الخطر ؛ وعلى نقيضها الفكرة الخاطئة ، فهي مضللة للانسان مبعثرة لجهوده في غير ما طائل ، بل إنها قد تضره وتؤذيه وتؤدي به إلى الموت . ولما كانت العقائد الدينية مجموعة آراء نسجها الانسان ووشج بينها ، كان لنا أن نقول إنه كلما بعدت العقيدة عن الصواب كانت أدنى إلى إيذاء الانسان والعمل على تدهوره ، ولكن مما يهون الأمر أن الفكرة الخاطئة لا يستفحل خطرها وأذاها إلا إذا مست حياة الانسان العملية فأثرت فيها أثراً مباشراً ، فان لم تكن كذلك كانت قليلة الخطر أو عديمته ؛ فلما كان الانسان مثلاً في العصور القديمة لا يتعدى بأسفاره ورحلاته نطاقاً محدوداً ضيقاً ، لم تكن لتؤذيه فكرة أن الأرض مسطحة على خطئها ، فالخطأ والصواب في مثل هذه الحالة سواء ، بل كثيراً ما يكون الخطأ أنفع للانسان من الرأي الصحيح كأن توهم المشفي على الموت بأنه قوي سليم

وعلى هذا النحو كانت فائدة النظرة الروحية في مراحل الانسانية الأولى ، إذ كانت العقيدة أقوى حافز يدفعه إلى العمل والنشاط حينما كان الانسان أشد ما يكون حاجة إلى التشجيع . فقد كان أول أمره يهيم مع أوابد القفر وضواري الغاب ، يعيش لساعته عيش الحاجة والضرورة ، فلما أراد أن يعلو على مستوى الحيوان وأن يتخذ لنفسه في الحياة منزلة رفيعة ومكانة ممتازة بين الأحياء ، مستعينا بما أوتي من عقل وخيال ، رأى أن الوسيلة الأولى هي أن يحطم أغلال الضرورة ما استطاعت حيلته ، وأن يوسع من

أفق زمانه فينفذ ببصره إلى الغد ، وهنا أخذ يعيش فى جو من أحلام ينسجها لنفسه بقوة خياله ، وسرعان ما ألقى فى روع نفسه أن هنالك - فوق العالم الذى يرى - قوة سامية سترعاه وتأخذ بيده مما يصادفه فى حياته من عسر وإشكال ، وتمكنت من نفسه العقيدة بأن تلك القوة العليا ستكون له خير هاد ومرشد فى طريقه نحو الكمال الذى أخذ يرجوه ويبتغيه بعد أن نقض حياته الحيوانية الأولى ، وتحرر من رق الضرورة واستعبادها

تلك كانت نواة العقيدة الدينية التى عملت فيما بعد على تماسك الأفراد وترابطهم فى تكوين المجتمع ، إذ أوحت إلى الناس ضرورة احترام العادات والتقاليد التى هى الأساس الأول فى بناء المجتمع ، كما خلعت على السلطة الدنية مسحة مقدسة زادت من هيبتها واحترامها ؛ وبديهى أنه لا بقاء لمجتمع بغير سلطان محترم مهيب ، وهكذا كان الدين عماداً قوياً فى بناء المجتمع أول الأمر كما كان خير مدرب لمشاعر الانسان وعواطفه ، إذ راضها وصقلها وأجراها فى سبيل صالح مستقيم ، ولعل هذا هو السبب الذى من أجله كان الدين كنفاً ترعرعت فى ظله الفنون الجميلة على اختلافها إبان طفولتها

كل هذه حسنات للدين مشكورة غير منكورة ، ولكن قد يكون هذا الذى عاون الانسان على السير فى أول الطريق عائقاً يحول اليوم دون تقدمه ، وقد يكون « فرويد » العالم النفسى الكبير مصيباً فى رأيه بأن الدين صالح لتقويم الأخلاق إبان الطفولة حتى إذا مانضج الانسان كان لزاماً عليه أن يواجه مشكلات الحياة العملية فى صرامتها وجدها ، ولا ينبغى أن نطيل الوقوف عند هذه المرحلة الأولى - مرحلة الأحلام الجميلة والآمال الحلوة بأن قوة سامية ستحول بين صدورنا وبين ضربات القدر وسهامه ، فلئن كان الدين قد ساهم بقسط وافر فى تطور الحياة البشرية ورقيها فلقد فرغت رسالته وأصبحت الانسانية اليوم فى مرتبة من رشد الكهولة تجعلها فى غنى عنه

ويقول أوجست كونت فى هذا الصدد إن طريقة تفكير الانسان بازاء العالم قد سارت منذ نشأتها إلى اليوم فى مراحل ثلاث : الأولى هى المرحلة اللاهوتية حيث كانت تفسر الأحداث بقوى الآلهة ؛ والثانية ، وهى المرحلة الغيبية حيث كان الانسان يعلل حوادث الكون بمجموعة من القوى ، فيعزو الحياة إلى القوة الحيوية ، والنار إلى الحرارة ، وسقوط الأجسام إلى قوة ثقل الأجسام ؛ والمرحلة الثالثة هى المرحلة الايجابية التى فيها يفسر الناس ظواهر الوجود بأسباب مباشرة تسبق حدوث الظاهرة المعينة ، فاذا وقعت العلة جاء فى أثرها المعلول تبعاً لقانون معروف ؛ وهذه المرحلة كما يقول كونت هى أسمى مراحل العقل البشرى ، وهى هى المرحلة التى تجتازها الانسانية اليوم . وهكذا يدعو أصحاب المذهب الطبيعى إلى نبذ العقائد على الرغم من رسوخ قدمها فى النفس وتأصل جذورها فى القلوب ، ويهيبون بالناس أن يواجهوا حقائق الكون الواقعة فى شجاعة وإقدام

***

والعجيب أن هذا المذهب الطبيعى لم يعدم فى كل عصر من عصور الفكر ظهيرا ونصيرا ، فقد وجد بين فلاسفة الاغريق من يقيمه ويؤيده كديمقريطس ؛ ووفق فى مستهل العصر الحديث الى رجل مثل « توماس هوبز » الذى أخذ على نفسه أن يفسر كل شىء فى الوجود على أنه مادة متحركة ليس إلا ، فتناول العقل نفسه وقال إنه نتيجة لجملة الأحاسيس التى تنفذ الينا خلال الحواس الخمس ، ولما كان هذا الاحساس أثراً مباشراً لتحرك الأعصاب ، وهذه نتيجة لازمة لما يقع بين الأشياء المادية من حركة ، كان العقل بكل ما فيه من ذاكرة وخيال وما اليها ضربا من ضروب الحركة المادية لا أكثر ولا أقل - هذا وإن ديكارت الذى يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وواضع أصولها قد نادى بأن الكائن الحى لا يزيد على آلة صماء عمياء تسير فى حياتها كما تسير الآلة الميكانيكية ، وقال إن جسم الانسان أيضا آلة كسائر صنوف الحيوان ولو أنه استثنى العقل من هذه الآلية وقال إنه عنصر ممتاز . ثم جاء القرن التاسع عشر ، وهو عصر ازدهرت فيه المادية ووجدت طائفة كبيرة من المشايعين ، على رأسهم دارون وسبنسر وبخنر وهيكل وهكسلى ونيتشه ، فسار المذهب الطبيعى على أيديهم شوطاً فسيحاً فى تدعيم قواعده

(يتبع) زكى نجيب محمود

النقـــــد والمثال

الجمال الذاتي في بعض المعاني البسيطة

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في الفصل السابق عن نوعي المعنى الأصليّ والشعريّ ؛ وقلت في المعنى الأول : إنه أول ما يخطر على الخاطر ، وتتحدث به نفس الشاعر ، وذكرتُ أنه لا يسمى شعراً ، وليس من الشعر في قليل ولا كثير ، وبينت المعنى الثاني الذي تصرفت فيه الملكة الفنية بإضافة شيء من المحسّنات الشعرية إليه ، وقلت : إنه هو الذي يعدّ من مقومات الشعر وعناصره ، ومثلت لكلا المعنيين بما فيه الكفاية من شعر المتقدمين والمحدثين

وأقول في هذا الفصل :

إن بعض هذه المعاني الأصلية التي لم تتصرف فيها ملكة الشاعر قد يكون الحسن فيها أصلياً ، والجمال فيها من ذاتها ، فلا تتصرف فيها ملكة الشاعر تصرفاً كثيراً ولا قليلاً ، ولا تتكلف فيها تحسيناً ولا تجميلا ، بل إن تصرف الشاعر فيها قد ينقص من جلالها ، ويشوه من جمالها ، ويحجب هذه الطبيعة الجميلة بثوب من التكلف يحول بينها وبين مشافهة الأذواق بجمالها ، ومباشرة الاحساسات بتأثيرها ؛ فهي أشبه بغانيات أبي الطيب اللاتي استغنين بما فيهن من جمال مطبوع ، عما يُكسبهن الافتتان في الزينة من جمال مصنوع إذ يقول :

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ ... وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب

أفدِي ظِباء فلاةٍ ما عرفن بها ... مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمّام مائلة ... أردافهن صقيلات العراقيب

ومن هوى كل من ليست مموهة ... تركتُ لون مشيبي غير مخضوب

وليس على الشاعر في أمثال هذه المعاني إلا ما يتعلق بالصياغة البيانية ، من عذوبة العبارة ، ورقة النسج ، وشرف الألفاظ ، واختيار الأسلوب الملائم لغرض الشاعر ، وما إلى ذلك مما يتصل بالألفاظ والعبارات ، دون المعاني والأغراض ، وإنما يكون هذا الجمال الطبعيّ في المعاني البسيطة إذا صدرت عن عاطفة قوية في النفس ، وتحدرت عن ينبوع صافٍ من الحِسّ ، وكانت صُوَراً دقيقة للشعور الصادق في القلب الخافق ، فهنالك لا يعد الشاعر إلا لساناً ناطقاً ، لا مبتدعاً خالقاً

وترى هذه المعاني الجميلة بطبيعتها مستفيضةً شائعةً في شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين إلى أواسط العصر الأمويّ ، وإنما استفاضت هذه البساطة في شعر الأمويين لقرب عهدهم بعيش البساطة في البادية ، ومشافهة الطبيعة في صحراء الجزيرة ، فهم رغم تفرقهم في الممالك التي فتحوها وانتشارهم في الأمصار التي مصّروها ، ومفارقة الفطرة في بواديهم ، لم يزل صوتها يناديهم ، فيجيبونها في أشعارهم بالبساطة في معانيهم وأفكارهم

وإنك لتستجلي ذلك في شعر النسيب وما هو بسبيله ، من الحنين إلى الأوطان وما قضاه الشاعر فيها من لبانات وأوطار وما لقيه بعد فراقها من مِحَن وآلام وذِكر الشباب الزائل ، وما كان فيه من لهو وباطل ، ونفور الحسان من هذا الشعر الأبيض الذي يُقذي العيون ، ويذهب باللهو والفتون ، كما ترى هذه البساطة الفاتنة فيما تقرؤه أوائل قصائدهم في صفة الديار والأطلال ، وما فعلت بها الرياح والأمطار ، وما بقي فيها بعد من رحلوا عنها ، وتحديد مواقعها بين الأمكنة التي تتصل بها أو تقرب منها

وترى ذلك أيضاً في شعر الذكريات حين تنزل بالشاعر محنة من سجن أو إسار فيعزّي نفسه عن تقييد ساقيه بإطلاق فكره في تذكر أيامه الذاهبة ، ولذاته الفائتة ؛ وذِكر ما كان يحضره من مجالس الشراب والقيان ، وبقائه رغم القيد على الوفاء لمن كان يجالسه من الندامى والصحاب ، وإقدامه في القتال ، وصبره على مقارعة الأقران ثم يأخذ في الافتخار بقومه وعشيرته ولومهم على تركه لأعدائه ، وبطئهم عن فدائه ؛ كلٌّ ذلك في حسرة وألم يفريان الضلوع ، ويستنزفان الدموع

وأنا أعرض عليك في هذا الفصل أمثلة يسيرة لما ذكرت مما اخترته من حفظي

أما جمال هذه البساطة في النسيب ، فكقول المجنون « وهو

من أصوات الأغانى »

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إننى لك عاشقُ
لقد صدق الواشون أنت حبيبةٌ
إلىّ وإن لم تصْفُ منك الخلائق

ووجه الجمال فى هذا الشعر مخالفةُ الشاعر غيرَه من المحبين باحتقاره الوشاة ، وعدم استحقاقهم لتكلّف المصانعة والمداراة وهو بذلك يصف حبّه بالنقاء من الريبة ، وأنه أسمى من أن يستره بحيلة ، وأشرفُ من أن يُعمِل فى إخفائه الوسيلة

ثم انظر إلى سحر هذه البساطة فى ضد ذلك وتصوير الخوف من الوشاة والارتياع من مقالتهم ؛ وشكوى الشاعر إلى حبيبته قلّة الرسل إليها ، وأن الحيل قد أعوزته فى لقائها ، ثم إشارته بعد ذلك إلى عتابه عليها ، وضراعته إليها ؛ كل ذلك فى بساطة ساحرة وجمال رائع يشبه جمال الأزهار التى كستها الطبيعة من ألوانها الفاتنة ما تقصُر عنه ريشةُ الفن بما تزوّره من أصباغها الحائلة

أريد شعر يزيد بن الطّثرية حيث يقول :

أيا خُلّة النفس التى ليس دونها ... لنا من أخلاء الصفاء خليل
أما من مقام أشتكى غربة النوى ... وخوف العدا فيه اليك سبيل
فديتك ، أعدائى كثير ، وشقتى ... بعيد ، وأشياعى لديك قليل
وكنت إذا ماجئت جئت بعلة ... فأفنيت علاتى فكيف أقول
فما كلَّ يوم لى بأرضك حاجةٌ ... ولا كلَّ يوم لى اليك رسول
صحائف عندى للعتاب طويتها ... ستنشر يوما والعتاب طويل
فلا تحملى ذنبى وأنت ضعيفة ... فحمل دمى يوم الحساب ثقيل

ومثل هذه البساطة الساحرة ما تراه فى شعر عبد الله بن الدُّمينة حيث يقول :

ألا لا أرى وادى المياه يثيب ... ولا النفس عن وادى المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وإننى ... لمشتهر بالواديين غريب
أحقا عباد الله أن لست واردا ... ولا صادراً إلا علىّ رقيب
ولا زائرا فردا ولا فى جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب

أما جمال هذه البساطة فى معانى الحنين الى الوطن فمن أحسن ذلك قول بعض الأعراب :

أحب بلاد الله مابين منعج (١) ... إلى وسلمى (٢) أن يصوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمى ... وأول أرض مس جلدى ترابها

وقول عبد الله بن نمير :

تمز بصبر لا وجدّك لن ترى ... عراص الحمى إحدى الليالى الغوابر
كأن فؤادى من تذكره الحمى ... وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وقول الصمة بن عبد الله القشيرى :

قفا ودّعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربى ... وما أحسن المُصطاف والمتربَّعا
وليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى ... على كبدى من خشية أن تصدّعا

فهل ترى أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة قد زاد فى هذا الحنين على ما يتحدث به اليك متحدث نأى عن بلده ، وفارق أهله وعشيرته ، من الحنين المبهم ، والألم لفراقهم ، وتذكر ما مضى له من عهود ، وزمن لا يعود ، وتمنيه العودةَ إلى وطنه تمنى اليائس من الأمنية ، وتأميله الرجوع الى بلده تأميل من يثق بالخيبة ويوقن بامتناع الأمل واجتهاده فى الدعاء له وتوديعه إياه ، وتفديته بالنفس ؛ فلم يخترع أحدهم فى الحنين معنًى جديدا ، ولم يفكر تفكيراً بعيداً ، ولم يُغرِب فى خيال ، ولم يبالغ فى تصوير ما يشعر به من ألم الفرقة ، ووحشة الغربة ، ولم يُثقِل شعرَه بالمجازات والاستعارات ، ولا بشيء من تلك الحلى الظاهرية الزائدة على الحاجة فى هذه المعانى وأشباهها

ولما كان هذا الشعر خطاباً صادراً عن نفس الشاعر منبعثاً عن عاطفته كان لا بد من مشافهته لنفس السامع ومباشرته لها ، ولا نزاع فى أن إثقاله بتلك الحلى الظاهرية من الاستعارات والمجازات مما يحول بين معانيه ومشافهتها للنفس ، ويباعد بينها وبين الحس ، ويجعلها أشبه بالغناء الجميل تسمعه بواسطة (الحاكى)

---

(١) منعج : واد يأخذ بين حفر أبى موسى والنباج
(٢) وسلمى : أحد جبلى طيء ، والجبل الآخر أجأ

فانه لا ينال من نفسك ما يناله الغناء المشافه

وفى هذه الأمثلة التى رويتها لك فوق البساطة الساحرة فى معانيها من رقة الأسلوب الملائم لمعانى الحنين ، وعذوبة العبارة ، وحلاوة الألفاظ — وهى كلٌّ عمل الشاعر . فى أمثال هذه المعانى — ما يثير الشجن ويوقظ اللوعة ، ويجتذب قلب السامع إلى قلب الشاعر حتى يصيرا قلباً واحدا متحد الاحساس ، متفق الشعور ، حتى يخيل للسامع — وهو فى وطنه بين أهله وعشيرته — أنه غريب عنهما ، وأن النوى قد قذفت به إلى مكان سحيق ، فهو يشكو الغربة كما شكاها الشاعر ، ويتمنى العودة كما تمناها ؛ وقد كان بعض علماء الأدب المتقدمين ينشد أبيات الصِّمَّة بن عبد الله السابقة على تلامذته فى مسجد الكوفة ، ثم يبكى حتى تخضل لحيته ، ويقول : ما أصلب أكبادكم ! ألا تبكون عشيات الحمى ؟

وسرّ الجمال فى هذه المعانى مشافهتها للعاطفة ودخولها إلى النفس الانسانية من ناحية الضعف الموجب للمواساة والرحمة ؛ ونفوذها إلى إحساس العطف المشترك بين الأسرة البشرية الباعث على المشاركة فى الألم والمحنة . أما بساطة هذه المعانى فى أشعارهم إذا بكوا الشباب وعهده ، وذموا المشيب ووفده ؛ ووقفوا على الأطلال والديار ، فلا أريد أن أطيل عليك فى هذا الفصل القصير بذكر أمثلتها ، فان ذلك مستفيض شائع فى كلامهم بل هو جُلُّ شعرهم ، وأكثرُ ما يبدأون به قصائدهم ؛ فلا تكاد تجفّ قصيدة لأحدهم مهما يكن غرضها من دمعة حارّة يذرها الأسف على شباب ذاهب والارتياع من مشيب طارق ، والوقوف على طلل ماحل ، ورسم حائل ، وذكر ما قضاه الشاعر فى أفياء هذه الرحاب وأكناف هذا الجناب ، من أيام عذاب وليال قصرتها مُتَعُ الصِّبا ولهوُ الفتوّة إلى غير ذلك

ولعلّهم جرَوا على ابتداء قصائدهم بهذه المعانى وتقديمها على الغرض المقصود بالشعر لتحريك القرائح الراكدة ، وإيقاظ الشاعرية الراقدة ، وتنبيه الأذهان التى قد تغفو ، واقتياد الأفكار التى قد تعزب ؛ ولما كانت هذه المعانى معروفة لديهم ، معبدة طرقها لهم ، محفوظا أكثرها عندهم ، كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر ، وتنشيط شاعريتهم فى ميدانها أسهل ، كما يجرّب الجواد باجرائه شوطاً قبل الانتظام فى الحلبة ، وكما ترى أرباب الموسيقى إذا قصدوا إيقاع إحدى النغمات ، أوقعوا على الأوتار مايقاربها من النبرات حتى يَسهُل عليهم الخروج منها إلى النغمة المقصودة

أما روعة هذه المعانى فى قصائد الذكريات إذا نزلت بالشاعر محنةٌ من سجن أو إسار ، فأنا أذكر لك أمثلة منها لقلتها وانتثارها فى كتب الأدب ، وصعوبة الظفر بها فى دواوين العرب ، وأكثرها من شعر لصوص البادية والمُغيرين على أموال القبائل وهم أفصح العرب شعراً ، وأصرحهم عربيّة ؛ وكان بعض علماء الأدب المتقدمين وأحسبه الأصمعى يقول : « إذا أتاك بيت لصّ فاحتفظ عليه » وذلك لاخلادهم إلى سكنى البادية ، وعدم اتصالهم بالحضر .

ومن أحسن ذلك شعر عبد يغوث بن وقّاص الحارثى ، وكانت تيم قد أسرته وشدّوا لسانه ، فقال من قصيدة

ألا لاتلومانى كفى اللوم مابيا ... فما لكما فى اللوم خيرٌ ولاليا
أيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن ... نداماى من نجرانَ ألاّ تلاقيا
أقول وقد شدّوا لسانى بنسعة [1]
أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا
أحقـًا عباد الله أن لستُ سامعاً [2]
نشيدَ الرّعاء معزبين المتاليا
وقد علمت عرسى مُلَيكة أننى ... أنا الليث معدوا علىَّ وعاديا
وقد كنت نحّار الجزور ومُعمِل ا
مطىّ وأمضى حيث لاحىّ ماضيا
وأنحر للشَّرب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمسها القنا ... لبيقا بتصريف القناة بنانيا
كأنى لم أركب جوادا ولم أقل ... لخيلى كُرّى نفّسى عن رجاليا
ولم أسبأ [3] الزّق الرّوىّ ولم أقل
لأيسار [4] صدق أعظموا ضوء ناريا

وإنك لتقرأ هذا الشعر بيتا بيتا فلا ترى ملكة الشاعر قد تصرفت فى هذه المعانى البسيطة الفاتنة ببساطتها تصرفا قليلا

(١) النسعة : سير عريض من جلد ينسج على هيئة أعنة النعال
(٢) المتالى من الابل : الأمهات اذا تلاها الأولاد الواحدة متل ومتلية . ومعنى إعزاب الرعاء لها : أنهم يبعدونها فى المرعى
(٣) أسبأ ، أى اشترى
(٤) الايسار : الذين يضربون القداح فى الميسر

ولا كثيرا ، ولا أضافت الى هذا الجمال الطبعى الرائع بطبيعته من المحسنات الفنيّة ما يزيده روعة وحسـنا ؛ ولم يزد الشاعر على أن عرض صوراً دقيقة من حياته الماضية ولذاته المنصرفة ، كما يتحدث به المتحدث ، لا كما يتخيله الشاعر المتكلف ؛ ودَعْني أيها الأديب المتذوق أعتمد على ذوقك فى إدراك الجمال فى هذا الشعر فانى أرى الاطالة فى شرح جمال الشعر والابانة عن وجوه الحسن فيه كما يفعله علماء البلاغة مما يسخفه ويسمّجه ، ويخرجه عن كونه إحساسات نفسية ، إلى جمله قواعد علمية

وسيمر بك أيضاً كثير من أمثلة هـذا الجمال منتثرة فى هذه الفصول م؟

أحمد الزين

---

٤ ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهـاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراق

علاقة الطليان بالحبشة

نشأت هذه العلاقة من اشتراك إيطاليا فى سياسة الاستعمار . ففى اليوم الذى نال الطليان وحدتهم تامة غير منقوصة بعد حرب ١٨٧٠ أخـذت الجرائد الطليانية تطالب بالمستعمرات الايطالية بحجة أن الطليان فى زيادة مستمرة فى بلادهم فيحتاجون إلى أرض أخرى للسكنى فيها

فاستأجرت فى سنة ١٨٧٠ شركة « روباتينو » أرضاً من الأهلين فى جوار « عصب » لمدة عشر سنوات . وكانت أرض مصوع وما يجاورها ملكاً للعثمانيين ولـكنهم تنازلوا عنها لخديو مصر مقابل خراج سنوى . وعند انقضاء مدة هذا الأيجار اشترت الشركة الارض المذكورة . ولما احتل البريطانيون أرض مصر أعلن الطليان أن « عصب » مستعمرة طليانية فأخذت البعثات الطليانية تتجول فى أرض دناكل والحبشة برغم هلاك بعضها بيد سكان البلاد ، وكان البريطانيون فى هذا التاريخ منهمكين فى مقاتلة جماعة المهدى فى السودان . وأراد الطليان أن يقلدوا البريطانيين فى تشكيل القوات فى المستعمرات فأخرجوا قوة طليانية صغيرة إلى « عصب » لحماية الشركة هناك وجعلوا هذه القوة نواة لتشكيلات أهلية أخرى أسوة بالبريطانيين

وعقيب انتصارات المهدى فى السودان اضطر المصريون إلى إخلاء مصوع وهرر وأرض الصومال والانسحاب إلى الشمال . فاستفاد الفرنسيون من ذلك فعقـدوا معاهدة مع سلطان هرر واحتلوا خليج تاجورة بأجمعه . فارتاب البريطانيون فى ذلك فأسسوا لهم مستعمرة فى الصومال فى جنوبى جيبوتى وجعـلوا قصـبة « زيلع » مركزاً لها وألحقوها بمستعمرة عدن وجعلوا سلطان هرر تحت حمايتهم

ويظهر أن بريطانيا أرادت أن تشرك إيطاليا فى حركاتها على المهدى وتجعل لفرنسا رقيباً فى أرض الصومال فوافقت على أن تحتل إيطاليا مصوع فى ٥ شباط ١٨٨٥ ، فخرجت يومئذ قوة طليانية إلى مصوع ورفعت العلم الطليانى على دار الحـكومة . فلم يحرك خديو مصر ساكناً . بيد أن الفرنسيين لم يرتاحوا إلى ذلك ، وبعد أن رسخت أقدام الطليان فى مصوع وجهوا أنظارهم إلى الداخل للتوغل فى أرض الحبشة ، وكان هناك طريقان تجاريان يربطان مصوع بالداخل : أولهما طريق « مصوع ـ كرن ـ كسـلا ـ الخرطوم » . أما الطريق الثانى فـكان متجهاً إلى الجنوب ويقطع جبال الحبشة من الشمال إلى الجنوب إلى أن يصل إلى شاطىء البحر الأحمر

ولـما كان هواء مصوع الحار الرطب غير ملائم للأوربيين فكر الطليان فى الحصول على مركز آخر فى الداخل صالح للسكنى . فارتفاع قصبة كرن حوالى ١٣٤٠ مترا عن سطح البحر . أما كسلا فارتفاعها يبلغ ٥٣٠ متراً ولـكنها محاطة بروابٍ بشكل قلعة ، ولـكى يحصل البريطانيون على مساعدة الطليان فى مقاتلة المهدى فى السودان لوحوا للطليان بالطريق الأول

فقررت الحـكومة الطليانية تجهيز قوة لانزالها فى مصوع تأهباً لاحتلال الحبشة من جهة أخرى وذلك رغم كون القيادة فى مصوع لفتت نظر ساسة الطليان إلى عاقبـة الحركة فى اتجاه كسلا . وكان فى جنوبى مصوع ميناء عرفالى الذى كان الأحباش يعتبرونه من الموانىء الحبشية لأنهم كانوا يجلبون الملح منه ، ولما

رأى النجاشى « يوحانس » أن الطليان احتلوا هذا الميناء احتج على ذلك

والحقيقة أن الحوادث بعد ذلك جعلت الحبشة وايطاليا تقفان وجها لوجه لأن البريطانيين قضوا على حركة المهدى بعد وفاته واحتلوا السودان وثبتوا أقدامهم فيه

لذلك لم يخش الأحباش خطراً من هذا الجانب . أما الطليان فأخذوا يوسعون نفوذهم فى مستعمرة مصوع التى أطلقوا عليها اسم « اريترة » (أى الزنبقة الحمراء) ووسعوا ساحة الساحل باحتلالهم ميناء زولا وخليج « عدولى » ومنعوا الأحباش من أخذ الملح فاحتج النجاشى على ذلك أيضاً فلم يعبأ الطليـان باحتجاجه بل سلكوا سبيل تخدير أعصاب الأحباش بارسال البعثات وكانوا قبل ذلك أرسلوا بعثتين من « عصب » فقتلهما الدناكليون . وأرسلوا بعثة أخرى فى سنة ١٨٨٦ فذبحت برمتها فى هرر . وفى سنة ١٨٨٧ أرسلوا بعثة أخرى . ولما وصلت الى ملك تيجرى ألقى الرأس القبض عليها وحبسها . فأرسل الطليان قوة مؤلفة من ٥٠٠ جندى قضى عليها الأحباش فاغتاظ الطليان لذلك فأبلغوا قواتهم فى مستعمرة اريترة الى ١٨٫٠٠٠ جندى وقرروا الحرب

وحشد الأحباش رجالهم فى آذار سنة ١٨٨٨ أمام موضع دفاع الطليان وكان عددهم بالغاً زهاء ١٠٠٫٠٠٠ . فخشى الطليان عاقبة الأمر ومالوا الى المسالمة فانسحب الأحباش لأن المهدى كان يهدد مقاطعة امحرة فهاجمها بجيوشه ودخل عاصمتها جوندار فدمرها ، فظن الطليان أن القتال بين الحبشة والمهدى سوف ينهك الأحباش فيجيبون مطالبهم لذلك أعادوا قواتهم الى ايطاليـا وتركوا ٨٠٠٠ جندى فى اريترا

وفى أوائل سـنة ١٨٨٩ جهز الأحباش بقيـادة النجاشى « يوحانس » جيشاً بقوة ١٨٠٫٠٠٠ كما سبق ذكره وتقدموا نحو المهدى فوقعت معركة فى « متمة » مات فيها النجاشى جريحاً وبعد أن ترك الأحباش ٣٠٫٠٠٠ قتيل فى ميدان المعركة رجعوا الى بلادهم خاسرين

منليك ملك الملوك

كان ملك شوعا أقوى ملوك الحبشة كما نعلم وكان من سلالة الملوك الذين يمتون بنسبهم الى النبى سليمان وزوجته بلقيس ملكة سبأ . فاحتل منليك مدينة هرر فى سـنة ١٨٨٧ وبسط حكمه على الغالا كلها ، واسـتولى على مقاطعة كافا وما يجاورها فأصبح بذلك ذا نفوذ عظيم ، فأراد الطليان أن يستفيدوا من حرب داخلية بالانحياز الى جانب منليـك متألبين على النجاشى « يوحانس » فأعطوه ٥٫٠٠٠ بندقيـة و ٢٠٠٫٠٠٠ طلقة ليبقى على الحياد عند ما يقاتل الطليان النجاشى « يوحانس » ، وكان الـكونت « انطونلى » على رأس الوفد الموفد اليه فتذاكر الوفد مع منليك فى الوقت الذى مات « يوحانس » فى معركة متمة . فقبل منليك شروط معاهدة « أوكسالى » فى سنة ١٨٨٩ وكانت خلاصة أحكام المعاهدة مايلى :

« تبادل الممثلين السـياسيين ، قبول خط الحدود بصورة عامة ، دفع رسوم جمركيـة بمقدار ثمانيـة فى المائة عن الأموال الطليانية التى تدخل أرض الحبشـة عن طريق مصوع وضرب النقود الحبشية فى إيطاليا ، وقرض الحبشة أربعـة ملايين ليرة ذهباً ، وحرية التجارة على أن ينفذ حكم المعاهدة فى بلاد الحبشة برمتها »

وكانت المادة السابعة عشرة تقضى على الحبشة بان ترضى بتوسيط إيطاليا فى علاقتها بالحكومات الاخرى . وكانت هذه المادة سبب الحرب بين الحبشة وإيطاليا

فاستفاد الطليان فوراً من احكام المعاهدة واحتلوا الأراضى التى تركت لهم بموجب المعاهدة قبل أن يوقع عليها ملك ايطاليا واحتلوا أرضاً فى بلاد الحبشة

ولم يرض ملك تيجرى بأن يتعاهد الطليان مع ملك شوعا وهو الذى ورث الملك عن أبيه يوحانس واعتبر نفسه ملكا للملوك

واحتل الطليان فى حزيران ١٨٨٩ « كرن » وفى آب « أسمرة » واستمالوا أحد رؤساء تيجرى إلى جانبهم . وهكذا استطاعوا أن يدخلوا « عدوى » عاصمة تيجرى بسهولة .

وبهذه الواسطة تقدموا من مصوع مسافة ١٣٠ كيلو متراً فتوغلوا فى ارض الحبشة واعتبروا انفسهم حماة الحبشة بالملحق الذى أضافوه إلى المعاهدة بسهولة حتى أن ملك ايطاليا أضاف إلى القابه لقب « حامى بلاد الحبشة »

ولما ذهب الرأس « ماكونن » ابن عم منليك إلى رومة حاملا

مواد هذا الملحق لنص المعاهدة هلل الطليان فرحاً واستبشاراً . وكان من حقهم ان يهللوا لأنهم حصلوا على صك استعمار الحبشة دون أن يسفكوا دماً ايطالياً

وفى تشرين الثانى سنة ١٨٨٩ وقع الرأس « ما كونين » على الملحق باسم منليك وقدموا إليه مقابل ذلك أربعة ملايين فرنك و ٣٠٠٠٠ و ٣٨ بندقية و ٢٨ مدفعاً وعتاداً كثيراً عربوناً لاخلاصه

فاعترفت الدول جميعاً بالمعاهدة وملحقها ما عدا روسيا . وفى سنة ١٨٩١ رضى البريطانيون بأن يحتل الطليان قصبة (كسلا) بصورة مؤقتة لأن قضية المهدى لم تكن قد انتهت

أما النجاشي منليك فعني بتوحيد الحبشة وتوقيتها ونقل عاصمة البلاد من « جوندار » بعد أن أحرقها المهديون إلى أديس أبابا . ومنح الفرنسيين امتيازاً بانشاء سكة حديدية تربط العاصمة بالساحل . ومن الطبيعى ان البريطانيين والطليان لم يرتاحوا الى عمل منليك فاحتجوا عليه وحرضوا الرهبان عليه بدعوى أن السكة الحديدية من عمل الشيطان

ولم يستطع الطليان أن يعملوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين فى محاربة المهدى . وكانوا ارسلوا قوة فى اتجاه كسيلا بدعوى حماية الأهلين من ظلم دراويش المهدى واحتلوا « أجوردة » وفى سنة ١٨٩٤ تقدمت قوات طليانية بقيادة الجنرال « بارانيرى » نحو « كسلا » وبعد معركة حامية طردوا أتباع المهدى منها واحتلوها

أما النجاشي منليك فكان يسعى لتوحيد البلاد فاستند فى السياسة الخارجية إلى صداقة فرنسا وأخذ يستميل الرؤساء المخالفين إلى جانبه فى الداخل واتفق مع رأس تيجرى فاعترف هذا بمنليك ملكا لملوك الحبشة وهكذا أصبح النجاشي يحكم فعلاً بلاد الحبشة برمتها

وأول عمل قام به بعد إعلانه ملكا لملوك الحبشة أنه أخذ يذيب كل العملة التى ضرب الطليان عليها رسم ملك إيطاليا ويضع بدلاً من رسم الملك الايطالى رسم النجاشي منليك ويكتب اسمه فيها بالكتابة الحبشية ويضع فى الوجه الثانى للعملة شعار الحبشة الأسد والتاج

(يتبع)

شكاة واعتذار

قصـــة معلم

فن كان يرثى قلبه لمعذب
فأجدر شخص بالرثاء المعلم

الرسالة ١١٧ «الأستاذ محمود غنيم»

للأستاذ على الطنطاوى

قلت لصديق لى أديب :

ـ إنى لأقرأ لك منذ عشر سنوات ، فما رأيتك أسففت إسفافك فى هذه الأيام ، وإنى لأشك أأنت تكتب ما تكتبه ، أم يجرى به قلبك وأنت نائم ، فتأخذه فتضع عليه اسمك ؟ فماذا عراك أيها الصديق فأضاع بلاغتك ومحا آيتك ؟

ـ قال : دعنى يا فلان دعني ... فان سراج حياتى يخبو ، وشمعتى تذوب ؛ وما إخالني إلا ميتاً عما قريب ، أو دائراً فى الأسواق مجنوناً ... إننى انتهيت ... بعت رأسي وقلبي برغيف من الخبز .. ..

ـ قلت : أربع عليك أيها الرجل وأخبرنى ما بك ، فلقد والله أرعبتني .. ..

ـ قال : وماذا بي إلا أنى معلم . إنى معلم فى مدرسة ابتدائية .. نهارى نهار المجانين ، وليلى ليل القتلى ، فمتى أفكر ، ومتى أكتب .. . وأنا أروح العشية إلى بيتى مهدود الجسم ، مصدوع الرأس ، جاف الحلق ، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مائة حماقة ، حتى أصحح مائة كراسة ، فأعمى عيني بقراءتها ، والاشارة إلى خطئها ، وبيان صوابها ، وتقدير درجاتها ، فاذا انتهيت من هذا كله — ولا يقرأ تلميذ من كل هذا شيئاً ، ولا ينظر فيه — عمدت إلى دفتر تحضير الدروس ، وهو الموت الأحمر ، والبلاء الأزرق ، الذى صب علينا هذا العام صباً ، فكتبت فيه ماذا أنا فاعل غداً فى الفصل ، دقيقة دقيقة ، ولحظة لحظة ... وماذا أنا قائل من كلمة ، أو مقرر من قاعدة ، أو ضارب من مثل ، حتى إذا بلغت آخر كلمة فيه ، استنفدت آخر قطرة من ماء حياتى ، فسقطت فى مكانى قتيلا ، فحملت إلى السرير حملا .. فنمت نوماً مضطرباً ملؤه الأحلام المزعجة ، والصور المرعبة ، فأحس كأن أمامى ركام الدفاتر التى سأصححها غداً ، فلا أنجو منها

حتى أبصر المفتش يتكلم من فوق المآذن ، فلا يدع قاعدة من قواعد التربية ، ولا نظرية من نظريات التعليم ، ظهرت فى فرنسا أو انكلترا ، إلا أرادنى على تطبيقها ، فى فصل فيه سبعون تلميذاً قد حشيت بهم المقاعد حشواً ، وصفوا على الشبابيك ، ووضعوا على الرفوف ، مما لا يرضى عنه منهج من مناهج التربية ، ولا قانون من قوانين الصحة ؛ فاذا امحت هذه الصورة ، رأيت كأنى أفهم تلميذاً وهو يصغى إلىّ ولا يفهم ، فأكرر وأعيد فلا يفهم ، فأقوم إليه أنظر ما يصنع ، فاذا هو منصرف إلى دُبيرة يربط رجلها بخيط . فاذا شتمته أو أخرجته من الفصل ، ذهب يستنجد القانون فينجده القانون الذى حرّم العقوبات كلها ، وكفّ يد المعلم ، وشد لسانه بنسمة . . . ولا أزال فى هذه الأحلام ، تنوء بى ، فأتقلب من جنب إلى جنب ، أحس كأن رأسى من الصداع بثقل أُحُد ؛ حتى يصبح الله بالصباح ، فأفيق مذعوراً ، أخشى أن يسبقني الوقت ، فلا أدرى كم ركعت وكم سجدت ، ولا كيف أكلت ولبست ، وأهرول إلى المدرسة لا أستطيع التأخر عنها ولو طحنتني الأوجاع ، أو أحرقتني الحمىّ ، لأن المعلم لا يسمح له القانون أن يمرض فى أيام المدرسة ، وعنده أربعة أشهر « عطلة الصيف » يستطيع أن يمرض فيها ، فاذا خالف ومرض ، حرم الراتب ومنع العطاء !

أغدو إلى المدرسة ، فأدخل على تلاميذ السنة الثالثة الأولية ، وهؤلاء هم تلاميذى ، لم يجدونى أهلاً لأكبر منهم ... فلا أنفك أقطع من عقلى لأكيل عقولهم ، وأمزّق نفسى لأرقع نفوسهم ، ثم لا أفلح فى تعليمهم ولا أنجح فى تفهيمهم ، ولا أدرى من أين السبيل إلى مداركهم ؛ فأنفق ساعة كاملة ، أقلب أوجه القول ، وأستقرى عبارات اللغة ، لأفهمهم كيف يكون (الاسم هو الكلمة التى تدل على معنى مستقل فى الفهم وليس الزمن جزءاً منه) فلا يفهمون من ذلك شيئاً ، ولا أقدر أن أطرح هذا التعريف السخيف أو أستبدل به ، فأهذى ساعة وأهرى ثم أقول : من فهم ؟

فيرفع ولد أصبعه . فأحمد الله على أن واحداً قد فهم ، وأقول :

ـ قم يا بنى بارك الله فيك ، فأخبرنى عن معنى هذا التعريف

ـ فيقول : يا أستاذ ! هذا داس على قدمي . فأصيح به ويحك أيها الخبيث ! إنى أسألك عن تعريف الاسم ، فلماذا تضع فيه قدمك ؟ ألم أقل لكم إن هذه الشكاوى ممنوعة أثناء الدرس ؟

ـ فيقول : ولماذا يدوس هو على رجلى ؟ !

ـ فأصيح بالآخر : لم دست على رجله ياشيطان ؟

ـ فيقول : والله لقد كذب ، مادست على رجله ولكن هو الذى عضّني فى أذنى فأغضب وأصرخ فى وجهه :

ـ وكيف يعضك وأنا قاعد هنا ؟

ـ فيقول : ليس الآن ، ولكنه عضّني أمس ويتطوع العفاريت الصغار للشهادة للمدعى وللمدعى عليه ، ويزلزل الفصل فأضرب المنصة بالعصا وأسكتهم جميعا مهدداً من يتكلم بأقسى العقوبات ، ولا أدرى أنا ما أقسى العقوبات هذه ؟ ... فيخنسون ويُبْلسون فأعود الى الدرس فاذا هو قد طار من رؤوسهم ، على أنه ما استقر فيها قط !

وينفخ فى الصور ، فتقوم القيامة ، ويخرج الأولاد الى الفرصة ، ثم نرجع الى درس القرآن . فأقول :

ـ من يحفظ سورة الفاتحة ؟

ـ فيتصايحون : أنا ... أنا ... أنا

ـ سكوت ! واحد فقط ... إقرأ أنت

ـ الحمد لله رب العالمين ... إياك نعبِد

ـ فأقول : إياك نعبُد ـ فيقول : نعبد

ـ ويحك : نَع ْبُ د

ـ فيقول : نَع ْبِ د

ـ انتبه يابني : نَع ْبُود

فيقولها . حسن : قل نعبُد . فيقول : نعبِد فلا نزال فى نعبُد ونعبِد حتى ينتهى الدرس . ولا يلفظونها إلا بالكسر لأنهم حفظوها من السنة الأولى خطأ

***

ولا أزال فى هذا البلاء بياض نهارى ، ولا يأتى المساء وفىّ بقية من عقل ، أو أثر من قوة ، ثم لا أنا أرضيت الوزارة ، ولا أنا نفعت أبناء المسلمين ، ولا أنا انصرفت الى مطالعاتى وكتابتى

وهذه مكتبتى لم أدخلها منذ أول العام المدرسىّ ، وهذه مشروعات المقالات والبحوث التى أكتبها ، وهذه مسوّدات الكتاب الجديد الذى أؤلفه مبثوثة فى جوانب الغرفة ، ضائعة مهملة . أفتلومني بعد ، على أنى لا أجوّد فى هذه الأيام ؟ قلت : هذه والله حالى فلست ألومك ؛ فرّج الله عني وعنك !

دمشق — على الطنطاوى

آيتـــــان من آيات الله

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

حدثت منذ أسبوعين حوادث جوية فى نابلس لا عهـد لنا بها ، ولا لمن هم أسن منا ، أزعجت الناس وأدخلت خوفاً كثيرا إلى نفوسهم ؛ هالتهم وعظمت عليهم ، أقضت مضاجعهم ونفت الـكرى عن عيونهم ؛ أرجعتهم إلى الله يسألونه اللطف بالـكهول والأطفال ، وقام المؤذنون من أعلى المآذن يستنجدون بخالق السموات والأرضين أن ينظر بعين الرأفة إلى هذه الأمة التى توالت عليها المحن والمصائب من كل جانب ؛ وكان صوت : « يارب ـ يالطيف » يدوى فى الأجواء ، ورن فى الآفاق ، ترجعه الأصداء إلى الآذان ، فيدخل إلى النفوس خشوعاً أحاطه الخوف ، واستسلاماً أحاطه الايمان والعقيدة ، فاطمأن المؤمنون وقالوا : ليفعل الله ما يشاء ؛ هو العليم وهو الحـكيم ، بيده الخير إنه على كل شىء قدير . وقال آخرون : إنها لعـلامات تدل على قرب الساعة . وقال غيرهم : إنها لأشـارات تنذر بالحروب والـكوارث . وكيف لا تشغل هذه الظواهر أفـكار الناس ، وكيف لا تصبح حـديثهم وموضع تنبؤاتهم وخوفهم وقد شغلت السماء كلها ، بما على الأرض من رياح ومياه وأشـجار ومبان ؟ ؟ ..

لاحظ الناس فى مساء يوم الأحد الموافق ٢١ من الشهر الفائت أن الحالة الجوية غير طبيعية قبل غروب اليوم المذكور ، فقد كانت تظهر فى بعض جهات المشرق والجنوب بروق ولمعات خاطفة ، دامت إلى ما بعد الغروب ، ثم مالبثت هذه البروق وتلك اللمعات أن استحالت إلى بروق متواصلة متعاقبة الحدوث والظهور فى نواح عديدة إلى أن شملت السماء كلها ، فاذا أضواء شـديدة تنبعث من بين الغيوم من شرارات كهربائية كثيرة الشعب والتعاريج ، كانت تظهر للناظرين وقد خيل اليهم أن السماء مفتحة الأبواب ، تخرج منها أنوار تخطف الأبصار ، مصحوبة برعود متعاقبة ، لها قعقعة مختلفة الشـدة ، تبعها برد وأمطار غزيرة ورياح هائجة أحارت الناس وأذهلتهم

ومما لا ريب فيه أن هذه الظواهر الجوية لا تحدث عفوا ومن دون أسـباب ، بل إن وقوعها لا يكون إلا حسب أنظمة خاصة لا تتعداها ، خاضعة لنواميس طبيعية لا تشذ عنها ، عرف الانسان بعضها ووقف على أسرارها ؛ وقد ثبت أن مدبر هـذا الـكون سائر بكونه على أسـاس من القواعد والقوانين متين ، وقد أتبع كل شىء سبباً ، وكلما عرف الانسان شيئاً عن هذا النظام وهذا الناموس وتلك القواعد والقوانين تجلت لنا عظمته تعالى واضحة فى آياته ، وتجلت لنا حكمته فى أفعاله وأعماله ؛ وما البرق والرعد وما اليهما إلا آيات من آيات الله لا تحدث لموت أحد ، ولا تنبئ عن وقوع حروب ، بل هى ظواهر تسير حسب أنظمة تمكن العلماء من اكتشافها ، وثبت لديهم أنها دلائل ساطعة على قدرته تعالى وألوهيته جل وعلا .. ..

لقد حسب كثير من الأقدمين أن هذه الظواهر الجوية من أفعال الشياطين تجرى بموجب قدرة إلـهية لتوقع القصاص على الـكفار والمذنبين . هذا الرأى كان سائداً فى الغرب وعند كثير من العلماء ؛ ومن الغريب أن العرب لم يأخذوا بهـذا الرأى ، وقد استعملوا فى تعليل بعض هذه الظواهر الجوية العقل والفـكر فكان رأيهم فى تعليل حدوث البروق والرعود والصواعق ، مع بُعده عن الحقيقة ، يدل على دقة فى الملاحظة ، ويدل أيضاً على أنهم كانوا لا يقبلون الآراء والنظريات المبنية على أوهام وخزعبـلات فنجد أحد علمائهم وهو القزوينى يقول فى تعليل البرق والرعد مايلى :

« إن الشمس إذا أشرقت على الأرض حللت منها أجزاء أرضية تخالطها أجزاء نارية ويسمى ذلك المجموع دخاناً ، ثم الدخان يمازجه البخار ويرتفعان معاً إلى الطبقة الباردة من الهواء فينعقد البخار سحاباً ويحتبس الدخان فيه ، فان بقى على حرارته قصد الصعود ، وإن صار بارداً قصد النزول ، وأيًّا ما كان يمزق السحاب تمزيقاً فيحدث منه الرعد ، وربما يشتعل ناراً لشدة المحاكة فيحدث منه البرق إن كان لطيفاً ، والصاعقة إن كان غليظاً كثيراً فتحرق كل شىء أصابته ، وربما تذيب الحديد على الباب ولا تضر بخشبه ، وربما تذيب الذهب فى الخرقة ولا تضر الخرقة ، وقد يقع على الماء فيحرق حيتانه وعلى الجبل فيشقه ...... » وقال فى سبب رؤية البرق قبـل سماع الرعد . . . « واعلم أن الرعد والبرق يحدثان

معاً لكن يُرى البرق قبل أن يسمع الرعد لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ، وذلك يتوقف على تموّج الهواء، وذهابُ النظر (أى سير النور) أسرع من وصول الصوت . . . »

ولقد بقى تعليل البرق والرعد وغيرهما من الظواهر الجوية غامضاً إلى أن جاء فرنكلين الأمريكى فى القرن الثامن عشر للميلاد فأوضح هو وغيره بأن فى الجو كهربائية يمكن الحصول عليها، وقد أثبت وجودها بتجارب عديدة، وبين أيضاً أن هذه الكهربائية موجبة فى غالب الأحيان، وأن كهربائية السحب تكون عادة سالبة، وقد تكون موجبة فى بعض الأحيان، وأن هذا كله يتبع التغيرات الجوية، وعوامل أخرى عديدة بعضها معروف والبعض الآخر غير معروف؛ وقد قدم فرنكلين بنتيجة تجاربه تقريراً إلى الجمعية الملكية بلندن؛ ومع أن أعضاء هذه الجمعية عدوا تجاربه وآراءه خيالاً فى أول الأمر إلا أنهم أقروا أخيراً نظرياته وأخذوا بآرائه ومنحوه نوطا رفيعا الشأن اعترافاً بفضله وانتخبوه عضواً فى جمعيتهم

واختلف العلماء فى منشأ كهربائية الجو والسحب؛ ومن الغريب أن هذا الاختلاف لازال قوياً، إذ لم يستطع أحد البت فى هذا الشأن. يقول بعض العلماء إن سبب وجود الكهربائية فى الجو يرجع الى تبخر الماء المحتوى على مقادير ضئيلة من الأملاح؛ ويقول آخرون إن منشأ الكهربائية الجوية بما فيها السحب هو الاحتكاك بين القطرات المائية الدقيقة بالثلج الموجود فى الطبقات العالية من الجو. وهناك عوامل أخرى لها علاقة بمنشأ هذه الكهربائية لا تزال غامضة وفى حاجة الى الاستقصاء وزيادة البحث . . . ولكن الثابت المحقق أن فى الجو كهربائية، وأنه يوجد سحب كثيرة مشحونة بكهربائية سالبة أو موجبة، فقد يصادف أن تمر سحابة مشحونة فوق سحابة أخرى أو فوق شجرة أو بناية، فتؤثر فيما تمر عليه وتجذب اليها الكهربائية المخالفة لها، وينتج عن ذلك اتحاد نوعى الكهربائية برغم الهواء ومقاومته، ومن هذا الاتحاد تتكون شرارة كهربائيــة ينبعث منها ضوء شديد نسميه « البرق »؛ وكثيراً ما يكون سير هذه منعرجا، ويرجع العلماء سبب هذا إلى مقاومة الهواء الشديدة عند اتحاد نوعى الكهربائيــة؛ ويختلف طول الشرارة بحسب مقادير الشحنات الموجودة فى السحب وعلى سطح الأرض فقد يبلغ ميلاً وقد يزيد على ذلك. ويلاحظ أن لون البرق يختلف، فبينما نراه أبيض فى أسفل الجو نراه فى أعلاه ضاربا الى اللون البنفسجى أو مائلاً الى الحمرة، وذلك لتخلخل الهواء فى تلك الجهات المرتفعة

والبرق على أنواع: منها برق كثير التعاريج وقد ظهر جليا فى تلك الليلة التى دفعتنا الى كتابة هذا المقال

وبرق يُرى عند الأفق وهو فى حدوثه كاللمعة الفجائية، وبرق كروى يمتد من السحاب الى الأرض فى بطء ويمكن العين أن تتبعه. وقد اختلف العلماء فى منشئه وفى أسباب حدوثه ولم يستطيعوا أن يصلوا الى نتيجة قاطعة فى ذلك؛ وهناك برق يُرى فى ليالى الصيف برغم صفاء السماء، ويرجع منشأ هذا البرق الى الغيوم الموجودة تحت الأفق، وهذه الغيوم تكون عادة بعيدة، وبعدها هذا من العوامل التى تحول دون سماع أصوات الرعود التى تحدث كنتيجة لهذا البرق. ولقد أثبتت التجارب أن البرقة تتكون من شرارات عديدة يتبع بعضها بعضاً وأن مدة لبث ضوء البرق أقل بكثير من عشر الثانية

أما الرعد فهو الصوت الذى يعقب البرق، وهو يسمع دائما بعد رؤية البرق، والسبب فى ذلك يرجع الى أن سرعة الصوت أقل بكثير من سرعة الضوء، فالصوت يسير فى الثانية الواحدة نحو ربع كيلومتر، بينما الضوء يقطع ثلثمائة ألف كيلومتر فى الثانية الواحدة — فتأمل ! ! . .

وسبب حدوث الرعد يرجع الى أنه عند ما يتحد نوعا الكهربائية أى عند التفريغ الكهربائى بين سحابتين، أو بين سحابة والأرض، يتمدد الهواء فى منطقة التفريغ ويحدث ضغطاً على الهواء المجاور ثم يأتى الهواء ثانيا الى تلك المنطقة لتخلخل هوائها، وهكذا تتكرر هذه الحركات وينتج عن تماقبها صوت نطلق عليه اسم « الرعد »، فاذا كان التفريغ فى منطقة قريبة منا سمعنا صوتاً مزعجاً جداً؛ أما إذا كانت بعيدة فحينئذ يكون للرعد أصوات ليس فيها شدة نسمعها متتابعة آخذة فى الازدياد من أزيز الى قرقرة الى قعقعة؛ وإذا حصل برق ولم يعقبه رعد فمعنى هذا أن التفريغ الكهربائى حدث فى أماكن بعيدة أوفى مناطق مرتفعة

حيث الهواء قليل الكثافة

وكثيراً ما نسمع بأن صاعقة وقعت على شخص فأفقدته حياته ، وانهالت على بعض مواد قابلة للاشتعال فألهبتها ، وانها أصابت حيوانا فأماتته ، وانها نفذت الى الأرض فأحدثت فيها فوهات عميقة ، وقد تقع على قضبان من الحديد فتمغنطها وتظهر عليها آثار المغناطيسية بصورة ملموسة . فما هي هذه الصاعقة التي تحدث مثل هـذه الأعمال ؟ ما سبب حدوثها ؟ لقد أثبتت التجارب أن الصاعقة ليست إلا تفريغا كهربائيا بين سحابة مشحونة وبين الأرض . فالأرض تشحن بالتأثير بكهربائية مخالفة لكهربائية السحابة فيحصل اتحاد بين نوعى الكهربائية وينتج عن ذلك شرارة كهربائية وهي ما نسميها بالصاعقة . وهي تتجه في سيرها في الطرق الأقل مقاومة لها من الهواء فتمر على المباني والأشجار وتؤثر فيها ؛ وقد تحدث فيها أضراراً جمة ، فاذا مرت على شخص أو حيوان فقد تفقدهما الحياة ، ولهذا لا يستحسن أن يجلس الانسان في الليالي الكثيرة البرق في أماكن مرتفعة (تحت السماء) أو تحت شجرة ، ففي ذلك كله يعرض نفسه للخطر . وتسلح الأبنية في البلدان التي يكثر فيها وقوع الصواعق بجهاز خاص يطلق عليه اسم «مانعة الصواعق ، أومترسة الصاعقة» اخترعها فرنكلين لحفظ المباني والأماكن العامة من الأضرار التي تحدثها الصاعقة : وبرغم معارضة رجال الدين لهذا الاختراع الجليل في بادئ الأمر فقد انتشر انتشارا كبيرا في أمريكا وأوربا ، وذاع اسم مخترعه (فرنكلين) وأصبح حديث الحلقات العلمية وموضع اعجاب العلماء ورجال الأعمال . ولا بأس من الاشارة الى أن فرنكلين لم يكن عالما فقط ، بل خدم العلم وقام بقسط كبير في تقدم الكهرباء ، واليه يرجع الفضل في إنشاء الجمعية الفلسفية الأمريكية وفي تأسيس جامعة بنسلفانيا الشهيرة ، وفوق ذلك فقد كان من كبار سياسيي زمانه الذين جاهدوا كثيراً في سبيل استقلال بلادهم ، ومات وقد تحقق كثير من غاياته السياسية التي من أجلها ضحى وناضل . وهذا المخترع العالم جدير بأن يكون قدوة صالحة ومثلاً عالياً لعلمائنا الذين يقبعون في بيوتهم أو في معاهدهم ولا يبذلون شيئاً من مجهوداتهم وتفكيرهم لخير بلادهم

وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى أنهم لا يسيرون في ميادينهم العلمية سيراً قومياً ، فلست ترى إلا نادراً من خصص بعضاً من وقته في ناحية الكشف عن مآثر أمته في الطب مثلاً أو التاريخ أو الرياضيات أو الآداب أو الطبيعيات أو الفلسفة أو في أي فرع من فروع المعرفة الأخرى وأثرها (أثر الأمة) في تقدم المدنية وسير الحضارة ؛ وقد غرب عن بالهم أن علماء الأمم في هذا الزمان وفي الأزمنة السابقة قد خصصوا (ويخصصون) جانباً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم في ناحية بعث الثقافة القومية وتبيان آثار أممهم في ميادين العلوم والفنون . نحن لا نقول بألا يواصل علماؤنا بحوثهم وألا يهتموا بالتنقيب ، ولكننا نقول بأن يخصصوا جانباً من وقتهم للاشتغال في تحرير بلادهم من النير الأجنبي ولتوجيه بعض بحوثهم توجيهاً قومياً يخلق في النشء روح الاعتزاز والاعتقاد بالقابلية ، وفي هذا قوى تدفع بالأمة المستعمَرة إلى ما تتمناه من رفعة وسؤدد واستقلال

ولنرجع الآن إلى مانعة الصواعق فنقول إنها تتركب من ساق وموصل ، فالساق يتركب من قضيب حديدي مدبب في نهايته العليا لا يقل طوله عن خمسة أمتار ولا تقل مساحة مقطعه عن ٢٥ سنتيمتراً مربعاً يوضع في أعلى البناء المراد تسليحه ، ويغطى طرفه الأعلى عادة بطبقة من البلاتين لكي تمنع تراكم الصدأ ، وبذلك يبقى القضيب جيد التوصيل ؛ أما الموصل فهو سلك من حديد أو عدة أسلاك تمتد من نهاية الساق إلى الأرض ، ومن الضروري ملاحظة هذه النقطة ـ نقطة الاتصال الأرضي ـ إذ يجب أن يكون الاتصال (بالأرض) محكماً ، وإلا لما كان للمانعة فائدة عملية ، ويستحسن أن تكون نهاية الموصل في أرض مبللة أو في بئر ، وإذا لم يمكن ذلك فمن الضروري عمل حفرة في الأرض تدخل فيها نهاية الموصل ، ويُراعى في هذه الحفرة أن تكون دائماً رطبة وذلك بتسليط مجرى مائي عليها ، أو باستعمال طرق يمكن بواسطتها حفظ رطوبتها ؛ ولكي يضمن الانسان الفائدة العملية من المانعة يجب عليه أن يجعل لنهاية الموصل شعبتين أو ثلاثاً . وهناك طرق أخرى اخترعت لحفظ المباني من الصواعق واضرارها يمكن لمن يريد الاطلاع على تفاصيلها أن يراجع الكتب الخاصة بذلك

وللمانعة الصواعق عملان : الأول أنها تمنع تراكم الكهربائية

على سطح الأرض ؛ والثانى أنها ترجع السحب المكهربة إلى حالة التعادل ؛ وهذان العملان يحولان دون حدوث الصاعقة ويحفظان الأبنية من آثارها ؛ وقد تكون المانعة غير قادرة على منع حدوث الصاعقة ، فحينئذ يحدث التفريغ وينتج عنه البرق ، ولكن يقع التأثير كله وتقع الصدمة كلها على المانعة لأنها جيدة التوصيل ، وبهذه الطريقة يصان البناء ويبقى سالماً

لقد تكلمنا بإيجاز عن البرق والرعد والصاعقة ، وعن كيفية حدوثها ، ومن أراد زيادة البحث والاستقصاء فعليه أن يرجع إلى الكتب الموضوعة فى علم الطبيعة وغيرها ، ففيها الكفاية والتفصيل

ويظهر لنا مما مر أن هذه الظواهر كغيرها تسير على قانون ونظام لا تخرج عنهما ، وترتكز على أسس ومبادئ يسعى الانسان للتعرف عليها والوقوف على دقائقها ؛ وإن فى تعرف الانسان عليها ووقوفه على دقائقها لما يقوى فيه روح الاعتقاد بوجود قوة الله المدبرة الحكيمة المنظمة التى تشرف على هذا الكون وتسيطر على حركاته . أليس فى البرق والرعد والصاعقة وفى كيفية حدوثها ، وفى المبادئ الطبيعية التى تسودها ما يزيد المرء اعتقاداً بضآلته ؟ أليس فى عدم استطاعته اكتشاف كثير من القوانين التى تسود الكون ، وفى عدم وصوله إلى نتائج حاسمة فى الوقوف على أسرار بعض الظواهر الجوية ما يزيد الانسان اعتقاداً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية ؟

أليس فى معرفة شىء عن حقيقة هذه الظواهر الجوية ما يزيد فى وداعة الانسان وفى تواضعه ، ويسمو به إلى عالم أسمى من عالمنا ؟

أليست هذه الظواهر الجوية دلائل قاطعة على عظمة الله المبدعة وقدرته الخارقة ؟

وأخيراً أليست هذه الظواهر من آياته فيها عبرة وعظة للذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض وما بينهما ؟

نابلس قدرى حافظ طوقان

بين الأدب والسياسة

للأديب أحمد الطاهر

نقصد بتاريخ الأدب – هنا – كل ما يتناول الحياة الأدبية للأمة ، مما يطرأ عليها من القوة أو الضعف ، والصعود أو الهبوط ، وأسباب ذلك ، وما ينتجه أصحاب البيان فى مختلف مناحى القول ، ودراسة حياة أولئك المنتجين ، وأثر ما انتضحت به قرائحهم فى اللغة

ونقصد بالتاريخ السياسى والاجتماعى – هنا أيضاً – ما يطرأ على الأمة من احداث وتغيير فى نظامها السياسى وعلاقة الحاكم بالمحكوم ونظام الحكم فيها ، وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم ، وكذا حالتها الاقتصادية والمالية ، وعلاقة ذلك بمرافقها

وما سقنا هذا التعريف – وهو غير جامع ولا مانع – إلا لنحد به موضع البحث فى الصلة بين التاريخين ، وهى صلة وثيقة واشجة . فقلَّ أن يتأثر أحدهما بعامل من العوامل دون أن يبدو لذلك أثر فى الآخر يبدل وجهته ويغير ديباجته – ذلك مالا خلاف فيه . أما ما اشتجر فيه الرأى وظهر الخلف : فأيهما يسبق الآخر فيمهد له الطريق ويعبد له المسلك ؟ وأيهما أبلغ أثراً فى الآخر ؟ وفى هذا نسوق الحديث :

لجمهرة الأدباء على أن التاريخ الأدبى يسبق السياسى والاجتماعى : فينهج له السبيل ، ويمهد له المنبت : فينشأ قوياً أو ضعيفاً ، منتجاً أو عقيماً ، حسبما تهيأ له

وأغلب الظن أن هذا القول على إطلاقه لا يقصد به أن يكون قاعدة يعتبر ما شذ عنها استثناءً ؛ ذلك بأن استقصاء تواريخ الأمم وتقريه يقف بنا فى مراحل عدة نجد فيها التاريخ السياسى والاجتماعى سابقاً للتاريخ الأدبى ، مؤثراً فيه أثراً عليه طابع السياسة وسمتها . بحيث لا يسع مؤرخ الأدب إلا أن يعترف بفعل السياسة فيه ، وأثرها فى أكثر مظاهره ونواحيه ؛ ونزول الأدب على حكم السياسة ، وكثرة هذه المراحل لا نطمئن معها إلى القول بأنها استثناء للقاعدة ، ولعل من الخير ألا نقرر قاعدة بعينها فى تحديد هذه العلاقة

فالأمم الحية القوية التى نالت حظاً من الحضارة والحرية ، إذا وقع فيها انقلاب سياسى أو اجتماعى ، أو قلبت صفحة جديدة فى سجل حياتها السياسية قل أن يحدث فيها هذا الانقلاب دون أن تسبقه نهضة أدبية تهيئه للوجود ، وتعده للنهوض بما تفعل فى الشعب من إيقاظ الشعور حتى الاحساس بضرورة التغيير ، وحفز الهمم حتى تصدق العزائم على المضى إلى الغاية ، وتمحيص الرأى حتى لا يتعثر فى درجه مع سيل الحوادث

ذلك فضل الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب ، وموضع الأدب هنا موضع السابق من المسبوق ، والمتبوع من التابع

ولا نغفل هنا أن الأدب لا يكتفى بالسبق ، ولا يقنع بالقيادة : بل إنه ليلتى الانقلاب السياسى فى الميدان بعد أن أفسح له الطريق فيدارجه ويرعاه بما يقويه ، ويبعث النشاط فى نواحيه ، ويهدى الأمة فى جهادها فيه ، ويقف التاريخ السياسى والاجتماعى حيث قدر له أو حيث أراد ، ولكن التاريخ الأدبى لا يقف عند هذه الغاية . بل يسير بعد ذلك ويمتد أثره : فما يزال أهل الأدب بعد الحدث السياسى أو الاجتماعى يحبُون الأمة بفضلهم ، ويتعهدونها ببرهم ، ويخرجون لها جميل آثارهم ، ونتاج قرائحهم : يتحدثون عن الماضى وما كان فيه ، ويذكرون الحاضر ، ويستشرفون بالأمل فى المستقبل ، فتربو ثروة الأدب وتنمو . ويتسع مجال القول ، وتخلد للأمة آثار تبقى ما شاء الله على تطاول الزمن

ولا نُغفل كذلك أن الأدب فى هذا الوضع يفضل السياسة من حيث ما تفيد الأمة من كليهما : ذلك بأن الانقلاب السياسى أو الاجتماعى غير مأمون العاقبة : فالأمة فى سبيلها الى الغاية السياسية أو الاجتماعية التى تقصد اليها يعرض لها ما يعرض للظاعن فى طريقه : فقد تعيا فلا تصل الى الغاية ، أو تتكاءدها عقبات تحول دون الفوز بالمقصد ؛ وقد تهب عليها من أية ناحية أعصار وأنواء تصدف بها عن المحجة ، وتلوى بها عن القصد ، وتضلها عن السمت ، فلا تبوء الأمة بعد جهادها الطويل أو القصير إلا بالفشل فيما قصدت اليه ، وخسران الأنفس والأموال فيما سعت له ، بَلْهَ جريرة ذلك على حاضرها ومستقبلها

أما النهضة الأدبية فقاعدتها بقاء الأصلح . وحكمها فناء السقيم : فمتى نهض أهل الأدب وبرزوا للناس بفضل أقلامهم فذلك هو الخير الذى لا سبيل الى التشكك فيه من حيث هو ثروة وعتاد فى الأدب . والبقاء مكفول لهذه الثروة ما بقى فى الدنيا أدباء ومؤرخون ؛ ولا بقاء للأدب الرخيص فانه يذهب جفاء فى اللحظة التى يظهر فيها للوجود . ومهما تكن النتائج السياسية أو الاجتماعية التى مهدت لها النهضة الأدبية أو كانت سببا فيها فهذه النهضة الأدبية لها قيمتها فى ذاتها وفيها خيرها من ساعة ميلادها : لا يغض من شأنها ، ولا ينقص من قدرها ، ولا تمتد اليها يد غاصب ، ولا تعبث بها يد ظالم . ولا نقصد بقولنا إن الأدب الرخيص أو السقيم لا يقوى على الحياة أن أدب الأمة ما بقى لا يكون إلا قيما ثمينا ، إنما قصدنا الى أن الأدب فى فضله وما يتروى الناس منه كالكنز يخرج من بطن الارض له قيمته وقدره ، وقد يكون الكنز ذهبا أو فضة أو معدنا دون الذهب والفضة ، ومهما يكن من شئ فهو ثروة لها قدرها ووزنها

ولكن هناك شروطا لا بد من وفائها حتى يفيض الأدب فضلا على أمته ، ويبلغ القصد من محجته ، فى هذا الوضع الذى بيَّنا : أولها أن تكون فى الأمة حياة أدبية تثبت وجودها قبل الأحداث السياسية ، وتستطيع أن تشق طريقها فى ظلمات الانقلاب ، وتسلك نهجها تحت عواصف الثورة ، وتقوى على البقاء بعد أن تهدأ العاصفة ؛ وثانيها أن تكون الأمة موفورة الحق فى المتعة بحرية القول والبيان عن جدارة واستحقاق فلا تكتم عن الحق أفواه الخطباء ، ولا تكتم عن الصدق أنفاس الشعراء ، ولا تزم عن الكتابة أنامل الكتاب . وثالثها : أن يكون سواد الأمة مثقفاً ثقافة أدبية ؛ فبغير هذا لا ينبت لأهل الأدب زرع ، ولا يدر لهم ضرع ، ولا يصيخ لهم سمع . وأقرب المثل لهذا الوضع وهذه النتائج الثورة الفرنسية ونهضة الأدباء قبلها وأثناءها وبعدها . وذلك مالا يحتاج الى بيان

* * *

أما الأمم الواهنة المستضعفة فالعلاقة بين تاريخها السياسى والاجتماعى وتاريخها الأدبى مضطربة متبلبلة ، لا تسير على نهج واضح ، وتنقطع حيناً وتتصل حيناً ، وتضعف وتقوى ؛ ذلك بأنها لضعفها واستكانتها وفرط ما كرثتها الحوادث تسلم سجل تاريخها السياسى للقدر ، أو لمن بيده أمرها ؛ يقلب صفحاته كما

يشاء ، ويمحو ويثبت فيه ما يشاء . فلا موضع للقول بأن لأدبائها أو لتاريخها الأدبي أثراً في خلق انقلاب سياسي فيها ، أو التمهيد له ، أو تقويته ، أو تمهيده . فاذا حدث فيها انقلاب سياسي فهو في أغلب الأحيان مقطوع الصلة بحالتها الأدبية ؛ على أنه إذا جد الجد ، وقويت حركة الانقلاب السياسي وغالت مراحله حتى تنفست عن ثورة حادة ، أو ما يشبه الثورة الحادة ، فقد يؤثر ذلك في تاريخ الأمة الأدبي ، فيطلق الألسنة من عقالها ، ويمد القرائح بغذائها ، فتنطلق في الجو صيحات تكون خافتة في مبدئها ، وتستسلم بعد ذلك للأقدار ، فاما أن تقوى وتشتد ، واما أن تضعف وترتد

وهنا نرى للأدب فضلا آخر لا يجوز اغفاله : ذلك بأن الأمة التي وصفنا قد تعوزها في جهادها السياسي وسائله وعدته ، أو يقعد بها ضعفها عن النهوض له فتستخذي وتستسلم لضعفها أو قوة غلبها . أما أهل الأدب فلا ينضب لهم معين ، ولا يقفر بهم منبت ، فهذه الظلمات المحيطة بالأمة ينسجون من خيوطها شعراً ، وهذه صخور الظلم والاستعباد يفتتونها بأسنة الأقلام ويبسطونها للناس نثراً ، ومن هذا وهذا يحاولون احياء شعور أماته الظلم ، وإثارة همم قعد بها الخنوع . وقد يفلحون فيصلون بالأمة إلى غاية سياسية محمودة ، وقد يخفقون ولكن بعد أن يتركوا للأمة ثروة أدبية ؛ ولا تنس أن جهادهم شاق وعسير ، وأن بلاءهم مرهق ومرير

وهنا نجد التاريخ السياسي سابقاً ومتبوعا ، والتاريخ الأدبي لاحقا وتابعا ؛ والأول مؤثر في الثاني أثرا قويا أو ضعيفا ، وقد يبرز الأول في الميدان فلا يتبعه الثاني ولا يجاريه ، وإن تبعه ففي تؤدة ووناء .

على أنه يشترط أيضا في هذه الحالة أن تكون الأمة مثقفة الى حد معين حتى تستطيع في وسط هذا المضطرب أن ترى قبس النور ينبعث من قضبات الأقلام فتمشي على هداه ، وأن تسمع صوت الحق من الخطباء فتلبي نداه . ذلك ان أتيح للأديب أن يكتب ، وللخطيب أن يخطب

ولا يتداخلنا العجب من أن يسبق التاريخ السياسي ويتقدم والمثل أمامنا واضحة بينة . فتاريخ الأدب الاسلامي إنما تأثر بما سبقه من عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية كان من مظاهرها نشوء الأحزاب السياسية وما فتح الله للمسلمين من بقاع الأرض ؛ ذلك أثر في العقلية العربية فغير في أسلوب الشعر والخطابة والكتابة وموضوعاتها تغييرا ظاهرا . وأقرب من هذا المثل تلك الحرب الأوربية التي اندلعت نارها في الغرب ، وامتد لهيبها إلى الشرق ، فحركت النفوس وحفزت الهمم ، وأثارت المطامع ، وأبرزت في الشرق طبقة صالحة من الخطباء والكتاب والأدباء ، ما زالوا يعملون وما زال الشرق يرجو من غيثهم خيرا في الأدب وفي السياسة ؛ أليست هذه نهضة أدبية قامت على أثر حركة سياسية ؟

وليس سبق التاريخ السياسي على الأدبي قاصرا على الأمم الضعيفة أو المستضعفة ، فقد يقع هذا في الأمم القوية كما يتضح من أثر تلك الحرب في الغرب ، وأكثر أممه قوية متحررة ، فقد تقدمت الحرب وأحداثها ، ثم تبعها تغيير في الآداب من حيث الأسلوب ونظام القصة وطريقة التفكير ، وكان تغييراً مستوياً كاملاً قوياً ، بل كان نهضة حادة فتية

أليس من الخير بعد هذا ألا نلتزم قاعدة بعينها نجري على سننها الأدب والسياسة ونقيد بها موضع أحدهما من الآخر وأثره فيه ؟

ذلك ما أراه في هذا البحث ، فان رأى أئمة البيان وأهل الأدب غيره وجلوا لي وجه الصواب وبصروني مساقط الرأي فانني لشاكر وسعيد .

اليوزباشي أحمد الطاهر

٢ ـ عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

ثم انظر كيف فهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفس عمرو : لقد قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » لقد أسلم الناس حبا فى الاسلام وقد دفعتهم عواطفهم وهدتهم طبائعهم ، أما عمرو فقد حسب للأمر حسابه ، ووزن ربحه وخسارته ، حتى إذا اطمأن فقد آمن . وقد أقبل واثقاً . . هكذا أصاب الرسول الكريم فى فهم هذا الرجل الجليل . وان الرسول ليعرف أن عمرا كان تاجرا داهية ومساوماً ماهرا . . . وأنه قد بذل الثمن وينتظر الربح ، فهو لا يضن عليه بما يريد فيؤمره على سرية ذات السلاسل ، ويؤمره على المدد الذى أرسله اليه وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ونفر من الأنصار والمهاجرين . . . إن الرسول ليعرف أن هؤلاء كلهم لا ينظرون إلى ولاية أو إمارة . . . لأنهم لا يلقون جزاءهم عن الايمان إلا عند الله ... أما عمرو فيجادل أبا عبيدة على الأمارة ... ويقول له : « إنما قدمت على مدد ، وأنا الأمير ولا امارة لك ... » فينزل له أبو عبيدة عن الامارة وكفاه شرف الجهاد ... ثم انظر كيف يفهم أبو بكر نفس عمرو ... انه ليفرده بفتح فلسطين ... إنه ينقده ثمن ماسيبذل من جهد فى الفتح ومهارة فى القتال ... ولو قد طلب اليه أن يكون مكان يزيد بن أبى سفيان مثلاً على جيش دمشق ... لربما كره عمر ... وربما لم يبد من المهارة ما أبدى فى أجنادين ، ولكنه خليفة رسول الله ، كان يعرف عمراً خير المعرفة ... فنزل له عما يريد . ولم يقصر الفاروق فى هذا فتركه حراً فى فلسطين ، لم يعزله كما عزل خالدا ... وكان عمر يعرف كذلك أن عمراً مغامر ... وأى تاجر لا يغامر ؟ وأى رجال المال لا يرتاح إلى المضاربة والمغامرة والتعرض للغنم العظيم أو الغرم الذى يقصم الظهر ... ولكنه كان يعرف فيه حذق المضاربة ... وأنه لا ينزل السوق إلا كاسباً ، ولهذا ... أقره على فتح مصر ولم يفرغ بعد من فتح الشام ... وكان عمرو فى ذلك مساوماً ماهراً ومقنعاً ذا حجة ودهاء ... فلم تثبت اعتراضات عمر الثبت الحصيف الدقيق الذى يضن بمسلم واحد على أن يجازف به وإنما اقتنع سريعاً ... كان عمرو ماهراً لسناً بارعاً حين خلا بابن الخطاب وهما عائدان من فتح فلسطين ... وكان أمهر حين انساب فى جنح الليل يسعى الى مصر سعياً ... لقد خشى أن يعود أمير المؤمنين فيقبض يده ... وقد خشى أن يراجع عمر نفسه ... أو خشى أن يثنيه أحد عن عزمه ... وما أخطأ عمرو فى ذلك ... فما هى ساعات لا تنقضى على مسيرة عمرو حتى يقبل عثمان فيعلن اليه عمر نبأ غزاة مصر ... فما يكاد عثمان يسمع الأمر حتى يراع ويصيح به : « ياأمير المؤمنين : إن عمراً لمجرّؤ وفيه اقدام وحب للأمارة ، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا ... » فيشفق عمر على المسلمين اشفاقاً شديدا ... وتحدثه نفسه أن يستوقف عمراً ، ولكن عمراً قد مضى من أيام ... ولعله قد دخل حدود مصر ، ولعل الرسول لا يبلغه إلا وقد دخلها ... وما ينبغى لجيش إسلامى أن يدخل بلادا ثم يبارحها من غير فتح ... تلك إذن هزيمة لا تليق بجند الاسلام

... إذن فليسرع بالكتابة اليه ، فان أدركه الرسول قبل أن يدخل حدود مصر فليرجع ، وما فى ذلك حرج ... وإذا كان قد دخلها ... فليمض على بركة الله ، وليبعث اليه الامداد سراعاً تباعاً ... كأنما كان عمرو يقرأ ذلك لكنه من كتاب ! وكأنى به وقد قدر أن الخليفة لا بد أن يستدعيه ، وأن أحدا لا بد لاغه فى ذلك الأمر ... فها هو ذا يقرأ كتاب الخليفة دون أن يفتحه !... وها هوذا يحتال حتى يدخل أرض مصر ... لا لأنه يعلم أن الخليفة قد قال ذلك ... بل لكى يقول للخليفة إذا أمره بالرجوع : « وكيف أنسحب وقد دخلت أرض مصر ... فكأنى بالروم تقول : خافتنا العرب ... »

إلى هذا الحد بلغ ذكاء هذا الرجل وحسن تقديره ودقة بصره ... حتى عمر نفسه على ما عرف عنه من الذكاء الخارق لم يدرك شأو ابن العاص فى فن الحساب والتقدير ! ... ...

وأى صفقة هذه ... لقد ربحها ابن العاص ... إنها مصر التربة الغبراء ... والشجرة الخضراء ... « طولها شهر وعرضها عشر » كما يقول فى وصفه البليغ لعمر ... ثم انظر كيف يعرف الرجل سبيل استغلال « هذه اللقمة » السائغة ... إنه يقول : « ألا يتأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ... وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . . . . فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ... تضاعف ارتفاع المال [1] ... »

(١) أبو المحاسن : جـ ١ ص ٢٣

وتلك هى سبيل التاجر الذى يحسب مكسبه وطرق الفائدة منه ... ثم استمع إلى ما يوصى به النـاس غداة الفتح ... إنه لا يقف كثيراً عن حض الناس على الصلاة والصيام ... فتلك أمور بينهم وبين ربهم ... أما هو فحسبه أن يقول « يا معشر الناس ! إياكم وخلالا أربعة فانها تدعو إلى التعب بعد الراحة . وإلى الضيق بعد السعة ... وإلى الذلة بعد العزة ... إياكم وكثرة العيال ... واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل والقال بعد ذلك فى غير نوال[1] ، ثم يوصى الناس بالخيل ويطيل فى ذلك ... لأنها « رأس مال العربى » فى الفتح والزرع ! ... وهكذا ... كان الرجل يعرف قدر الصفقة التى كسبها من عمر ، ويعرف سبيل الفائدة منها ... واحسان القيامة عليها ، وإلى هنا ويبدأ الخلاف بينه وبين غيره ... حتى عمر نفسه لا يدانى ابن العاص فى مسائل المال والاستثمار ... فها هو ذا يكتب إليه يقول : « أما بعد فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً ... وقوة فى بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنـــة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ... فعجبت من ذلك ... وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبـل ذلك على غير قحط ولا جـدب ! » فيرد عليه عمرو الرد الحكيم فيقول : « ولعمرى . . للخراج يومئذ (أى أيام الفراعنة) أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم ، أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ... »

هنا نلمس الفرق بين عمرو وغيره من ساسة الاسلام ، إنه يجيد الاستثمار ، ويحسن القيام على المـال ... وهل كان الولاة الأولون يعرفون من هذه الأمور كثيراً أو قليلا ؟ أترك الجواب على ذلك لابن خلدون فله من ذلك شكوى لا تنقطع ... ! وهنا سر الخلاف بين عمرَ وعمروٍ ، ومبعث هذه المراسلات التى كانت تشتد وربما وصلت إلى التعريض ... فهذا عمر يقول : « وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق المبين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ! ... » ثم يقول له فى كتاب آخر : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر ! »

إن ابن الخطاب يعرف أساليب عمرو بن العاص ، إنه يخشى أن يدخر المـال ... إنه ليبعث اليه محمد بن مسلمة « ليقاسمه ماله » فى ظاهر الأمر ، وليكون عليه رقيباً حسيباً ! ... فى باطنه ؛ كان عمر يعرف فى ابن العاص صفة التاجر المغامر ... فعامله على حذر ، وأفاد منه ولـكن فى حذق . ولـكن عثمان قد عزله عن مصر ... فأى خطأ هذا ... وأى جهل بطبيعته ... لو أنه وجه اليه كلاماً أفعل من كلام عمر لسكت ... لو أنه فعل به أى شىء آخر لما أهاجه ذلك هذا الهياج ... ولـكن « الصفقة » ضاعت من يده ؛ لقد عزل عمر بن الخطاب خالد ابن الوليد عن إمرة صد الشام فـلم يحزن ولم يبتئس ، ولـكن ابن العاص لا يسكت ... إنه يعرض بعثمان حيث جلس ... إنه يخف إلى المدينـة مسرعا وإن الثورة على عثمان لتضطرب بين جوانحه ... وأى ثورة هى أشد من هذا الحديث البديع الذى رواه لنا الطبرى كاملا :

قال عثمان : يا ابن النابغة ! ... أتطعن على وتأتينى بوجه وتذهب عنى بوجه آخر ؟

عمرو - إن كثيرا مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فى رعيتك

عثمان - استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك

عمرو - قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض

عثمان - لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولـكنى لنت عليك فاجترأت ، أما والله لأنا أعز منك نفراً فى الجاهلية ، وقبل أن ألى هذا السلطان

عمرو - دع هذا ، فالحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فوالله للعاص أشرف من أبيك

عثمان - ما لنا ولذكر الجاهلية !

هكذا تنتهى المحاورة بين الخليفة وعمرو ... ويخرج هـذا الأخير وقد دبر فى نفسه أمراً ... انه ليثير الناس على الخليفة ويقضى وقته متنقلا من مجلس إلى مجلس يبسط للناس أخطاء عثمان ... ويحرضهم على الثورة عليه ... فاذا وفق إلى اثارة الناس وانذرت الفتنة فقـد انحاز إلى قصره « العميلان » بفلسطين ... حيث وجدناه فى أول هذا الحديث ... فاذا بلغه مقتل عثمان فقد طرب لذلك ولم يكتم فرحه به ... وصاح يقول : « أنا عبد الله ... إذا حككت قرحة أدميتها ، انى كنت لأحرض عليه ، حتى

(١) رواها أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم

٥٠٥

في الأدب الانجليزي

٥ - الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

الأحلام : Dreams

إن اهتمام شكسبير بالأحلام ليفوق اكتراثه بالعفاريت ، فقد جعل منها في كثير من الأحيان قسماً من أقسام الرواية الأساسية بحيث تشكل ما نسميه موضوع الرواية . وهناك عدد من الأحلام في رواياته كان له أثر غير قليل في مجرى الرواية وسياقها التمثيلي . فحلم كلوسستر في القسم الثاني من رواية هنري السادس ، وحلم كلارنيس في رواية ريشارد الثالث ، وحلم كلبورنيا في رواية يوليوس قيصر ، وحلم العرّاف في سمبالين ، كلها تكون جزءاً غير قليل من هيكل الرواية التي ذكرت فيها

وجميع هذه الأحلام التي ذكرتها عدا حلم العراف سمبالين تنبئ عن الموت والخراب ؛ فكلوسستر يرى في نومه غلاماً قد لدغته أفعى سامة فقتلته على الفور ؛ وكلارنس يحلم أن أخاه قد رمى به في بحر خضم فأغرقه حيث لا رجعة له بعد ذلك ؛ وكلبورنيا أبصرت في نومها زوجها قتيلاً بين أيدي مغتاليه ورأت جسده يسيل الدم من جوانبه وقد اجتمع جميع الرومانيين حوله ليرشفوا من دمائه

وكان الناس على اختلافهم يعتقدون أن الملكة ماب تبعث هذه الأحلام في الصدور ؛ وتتجلى لنا هذه الفكرة من اجابة مركونيو لرفيقه روميو إذ يقول : « وإني لأظن أن الملكة ماب قد لازمتك ليلة البارحة »

لقد تحققت جميع الأحلام التي وردت في روايات شكسبير ؛ ومن هذا يظهر لنا أن الشاعر كان يعتقد اعتقاداً جازماً في الأحلام وتأثيرها على المجتمع البشري ، وهذا الاعتقاد هو ما نسميه اليوم بعلم تفسير الأحلام

التنبؤ والتنجيم : Prophecay and Astrology

تحتوي روايات شكسبير على عدد كبير من النبوءات التي تختلف بحسب أهميتها وكونها قسماً رئيسياً من أقسام الرواية . وأهم هذه النبوءات التي يطالعنا بها شكسبير هي نبوءة مرجريت في رواية ريشارد الثالث . فهي تتنبأ للملكة اليصابات بقدوم وقت قريب تحتاج في أثنائه لمعونة كل انسان ، وهي تنبئ كلوسستر بقرب ذلك اليوم الذي تقطع فيه الأحزان نياط قلبه ؛ وإن من الغريب أن كلتا هاتين النبوءتين تتحقق في سياق الرواية

وأما النبوءات التي فاهت بها الساحرات في رواية مكبث ، فقد تحققت كذلك في نهاية الرواية . وهذه النبوءات كما ذكرنا سالفاً كانت على نوعين : احدهما حدث قبل أن يكون ملكا على اسكتلنده ، والآخر بعد رقيه العرش ، وقد تحققت هذه النبوءات كما تحققت سالفتها

وفي رواية (ترويلس وكريسيدا Troilus and Cressida) نرى هناك عدداً آخر من النبوءات التي تصدر عن أميرة حمقاء تدعى الكسندره ، فقد تنبأت بقتل هكتور ودمار طروادة ، وهذا ما حدث حقيقة في نهاية الرواية ؛ ونرى في بعض الروايات عرافين يتكهنون بحدوث الأمور قبل وقوعها ؛ ففي رواية يوليوس قيصر يتكهن العراف بقتل قيصر ، وهذا ما يتم فعلا

لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل(١)

والآن ! « قد خرج الحق من خاصرة الباطل ، وأصبح الناس في الحق شرعاً سواء ! . مات ولي الأمر وأصبحت دولة الاسلام كلها « صفقة واحدة » تحسن المساومة فيها جملة ، ولهذا أرق عمرو وسيأرق طويلا ، إنه ليتدبر الأمر تدبراً ، وإنه ليقلبه على وجوهه ويحسب مكسبه منه ، وخسارته فيه ، ثم يمضي على حذر ، وسنرى

للبحث بقية — حسين مؤنس

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٧ – ١٠٩ ، ٢٢٣

لننتقل الآن قليلا إلى البحث فى التنجيم والفلك ، ونرى هل اهتم شكسبير بهذا النوع من المغيبات . لقد وردت اشارات عدة فى كثير من رواياته إلى التنجيم وقدرته على حل رموز الغيب والمستقبل ؛ فنرى فى كل من هملت ، ويوليوس قيصر ، وكوربولانوس ، والعاصفة ، وهنرى السابع ، ومكبث ، وقصة الشتاء Winter's Tale عددا من الظواهر الطبيعية التى تحدث عادة قبل وقوع أمر جلل

سيطول بنا البحث كثيراً إذا أسهبت فى وصف كل من هذه الظواهر الطبيعية وشرح أسبابها ونتائجها ، ولذلك اقتصرت على ذكرها دون شرح أو تفسير ، فمن هذه الظواهر الكثيرة ظاهرة سقوط المذنبات وارتفاع أمواج البحر وقدوم بعض الطيور وسخط الطبيعة وانتقال بعض أنواع الحيوانات من مكان إلى آخر ، كلها كانت أموراً خارقة للعادة تنبىء عن حدث جلل ومصاب عظيم

الملاك الحارس Genius

يعرف جونسون هذا النوع من المغيبات بأنه القوة السماوية التى تحفظ الأنسان من الشرور والآلام ؛ وبولكير فى كتابه « العقائد الانكليزية » يقدم لنا تعريفا أوسع وأكثر شمولا ، فهو يقول : « يكون الملاك الحارس ملاكا خيراً أو شيطاناً مرتداً » .

وقد ذكر شكبير هذا النوع من المغيّبات فى سبعة مواضع ، وفى كل واحدة منها اتخذها عنواناً للفضيلة ومعنى من معانى الخير والصلاح إلا فى روايته العاصفة عند ما يصف فردناند هذا النوع من المغيّبات قائلاً : « إن شيطانى الحارس لن يكون قادراً على إبداع شرفى فى الرغام ، ولن يكون فى استطاعته قط أن يغير معالم السرور التى تحيط بى الآن »

من هذه الفقرة يظهر لنا أن للانسان ملاكاً وشيطاناً حارسين . يؤكد هذه النظرية خطاب فلستاف Falstaff الى بونيز قائلاً : « إن لهذا الغلام ملاكاً حارسا يمثه ، ولكن له فى نفس الوقت شيطانا يعمى بصائره ويقوده الى ما فيه شره ومضرته »

ولا يظهر هذا الملاك الحارس للملأ إلا بعد وفاة صاحبه ، فيظهر فى كل شبح من الأشباح يرتدى نفس الملابس التى كان صاحبها يرتديها قبل وفاته . ولننظر الى حالة الذهول التى تستولى على الناس عند نهاية رواية (مهزلة الغلطات Comedy of Errors) فيرون رجلين متشابهين لا يمكن تمييز أحدهما من الآخر . اسمعهم يتهامسون « إن أحد هذين الرجلين ملاك للآخر أو صورة مطابقة له »

وهذ الملاك يلازم صاحبه تمام الملازمة فى غدواته وروحاته وفى نومه ويقظته ، وهنالك لا يحدث نزاع بين رجلين إلا ويصحبه نزاع آخر بين ملاكيهما الحارسين . ولنستمع الى مكبث يقول عن بانكو : « انه الشخص الوحيد الذى أخافه وأرهبه . إن ملاكى الحارس لا يستطيع القيام بأى أمر من الأمور مخافة غضبه وسخطه ، كما كان ملاك أنطونيوس خاضعاً تمام الخضوع لملاك بروتس »

مما تقدم يتجلى لنا أن شكسبير عني بالملاك الحارس شيئاً غير الروح وغير الشبح . فما الملاك إلا باعث من بواعث الخير وداعٍ من دعاة الفضيلة يقى صاحبه ويحفظه من كل ما يهاجمه ويناوئه

(للبحث بقية) صبرى حماد

من تراثنا الأدبي

٤ - أبو العَيْنـــاء

للأستاذ محمود محمود خليل

تتمـــة

قلت إن أبا العيناء اتسع أمامه الميدان أيام المتوكل ، وظهر نجمه ، وسعدت أيامه ، فلم يقتصر الأمر على اتصاله بالخليفة ، بل اتصل بوزيره الفتح وأخيه عبيد الله ابني يحيى بن خاقان واستفاد من عطاياهم وسخائهم مالاً كثيراً ؛ ولقد مدح عبيد الله لدى المتوكل حينما سأله عنه فقال : « نعم العبد لله ولك ، مقسّم بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عادَلَ بصلاح ملكك كل لذة » . وله كتاب طويل كتبه إلى عبيد الله يستوهبه دابة يركب عليها حينما وهب له ابنه محمداً دابة ، فزعم أنها غير فاره . وهذا الكتاب تستطيع أن تجده في كتب الأدب ، وهو يدل على التلطف في المسألة ، والاحتيال على هؤلاء الرؤساء بتلك الأحاديث الحلوة الفكهة ، مما حبب أبا العيناء إليهم ، وجعلهم يغضون عن بذاءته ويلبسونه على علاته

انقضت دولة المتوكل ووزيره الفتح وأخيه عبيد الله ، واضطربت الأمور من بعده ، حتى استتب الأمن ، ورجعت المياه إلى مجراها ، وتولى الوزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة (المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدي) فاتصل به أبو العيناء وحضر مجالسه ؛ وطالما حدثنا الرواة عن كثير من حوادثه معه . دخل عليه ذات يوم فقال : اقرب مني يا أبا عبد الله . فقال أعز الله الوزير ! تقريب الأولياء ، وحرمان الأعداء . قال : تقريبك غنم وحرمانك ظلم ، وأنا ناظر في أمرك نظراً يصلح من شأنك إن شاء الله . وقال له يوماً : اعذرني فاني مشغول ، فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك ، وأنشده :

فلا تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال ياسيدي قد عذرتك ، فانه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك . ودخل عليه يوماً فقال من أين يا أبا عبد الله ؟ قال من مطارح الجفاء . وأقبل يوماً إليه ، فشكا سوء حاله ، فقال له أليس قد كتبنا إلى ابراهيم بن المدبر في أمرك ؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصَّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر ، فأخفق سعيي ، وخابت طلبتي . فقال أنت اخترته قال : وما عليَّ أعز الله الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً ، فما كان فيهم رجل رشيد ، واختار النبي (ص) عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً ، واختار علي بن أبي طالب (ض) حكماً له فحكم عليه ؟ ! وإنما قال أبو العيناء ذل الأسر لأن ابراهيم المذكور كان قد أسره صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب

ولما نكب الخليفة المعتمد على الله عبيد الله بن سليمان وولى الوزارة صاعد بن مخلد حصل خصام بين هذا الوزير وبين أبي الصقر اسماعيل بن بلبل الكاتب ، فانضم أبو العيناء إلى حزب أبي الصقر ولكن ذلك الموقف الذي وقفه من صاعد لم يمنعه من أخذ عطاياه واستجدائه ، وحضور مجالسه . وقد عادى أبو العيناء رجلاً يقال له أبو العباس بن ثوابة لمعاداته لأبي الصقر ، حتى إن الرجلين اجتمعا في مجلس صاعد يوماً ، وكان ابن ثوابة قد سبّ أبا الصقر قبل ذلك بيوم ، فقال ابن ثوابة لأبي العيناء : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : ضيق العطن ، كثير الوسن ، خاراً على الذقن ، وقد بلغني تعديك على أبي الصقر ، وإنما حلم عنك لأنه لم يجد لك عزاً فيذله ، ولا علوا فيضعه ، ولا مجداً فيهدمه ، فعاف لحمك أن يأكله ويهكه ، ودمك أن يسفكه . فقال ابن ثوابة : ماتسابّ إنسانان إلا غلب ألأمهما . فقال : لهذا غلبت أمس أبا الصقر !

ولقد كان من جزاء أبي العيناء من أبي الصقر على وقوفه منه هذا الموقف في سبيله أنه عندما تولى الوزارة خيّره فيما يحبه حتى يفعله به ، فقال أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائي تعرفه مكاني ، وتلزمه قضاء حق مثلي من خدمة ، فكتب اليه كتاباً بخطه فوصله إلى الطائي ، فسبب له في مدة شهر واحد مقدار ألف دينار وعشرة أجمل ، فانصرف بجميع ما يحبه . وله أحاديث كثيرة ، ومجالس طريفة مع الوزير أبي الصقر . ويظهر أن هذا آخر وزير اتصل به أبو العيناء من وزراء الدولة العباسية فانه لم يعش بعد ما نكب الموفق أبا الصقر إلا قليلا ، وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ

مهاترة مع كاتبين فى عصره

على أننا نرى من الواجب علينا أن نأتى بشىء مما جرى بين أبى العيناء وبين كاتبين قديرين فى عصره ، هما محمد بن مكرم ، وأبى على بن جعفر الضرير ؛ أما ابن مكرم فكانت له معه مداعبات ، وكان يهاتره كثيراً ؛ كتب اليه ابن مكرم يوماً : قد ابتعت لك غلاماً من بني ناشر ثم من بني ناعظ ثم من بني نهد . فكتب اليه : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . وولد لأبى العيناء ولد ، فأتى ابن مكرم فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ، فأحس به فقال : من وضع هذا ؟ فقيل ابن مكرم ، فقال : لعنه الله انما عرض بقول النبى (ص) : الولد للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : ما لك لم تهد الينا هدية ؟ قال : لم آت بشىء ، وإنما قدمت فى خيف ، قال : لو قدمت فى خف لخفت روحك . وقال له ابن مكرم يوماً يعرض به : كم عدد المكذبين بالبصرة ؟ فقال : مثل عدد البغائين ببغداد !

وأما أخباره مع أبى على الضرير فكثيرة ، وكم أتمنى أن يتيح لى الزمن فرصة الموازنة بين هذين الرجلين ، فان بينهما شبهاً قوياً ، وقد وجدا فى عصر واحد ، وكانا فى البلاغة نسيج وحدهما ، ولكن كانت بينهما منافسة قوية أدت إلى أن تجرى بينهما مساجلات ومفاخرات كثيرة ، حتى إن فتى من أبناء الكتاب فى بعض الدواوين تعرض لأبى العيناء ، وكان فيه جرأة فقال : كل الناس لك يا أبا العيناء زوجة ، وأنت زوجة أبى على البصير . فقال له أبو العيناء : قد ملكنا عصمتك بيقين نخواك ، ثم ننظر فى شكوك دعواك ، وقد طلقت الناس كلهم سواك ، ذلك أدنى ألا نعول ، وفيك ما يروى الفحول ، ويتجاوز السول . ففضحه بهذا الكلام ولم يجبه

وهذا الحديث يدل على أنه قدكان بين الرجلين تصادم ؛ وإن شئت فسمه مشاكسة وجدلاً عنيفاً وصراعاً قوياً بالألسن وأنه كثيراً ما يكون الغلب فى جانب أبى على الضرير

أدب أبى العيناء

ونقصد بهذا الأدب الشعر والنثر ؛ أما الشعر فلا نستطيع أن نعد أبا العيناء شاعراً مكثراً من فحول الشعراء لأننا لم نجد له فى كتب الأدب والتراجم التى بأيدينا شعراً كثيراً ؛ إنما الذى نقدر أن نحكم له به أنه كان من شعراء الكتاب أضراب أحمد ابن يوسف الكاتب والوزير للمأمون فيما بعد ، وقد تقدم له بضعة أبيات مدمجة فى أحاديثه تؤيدنا فى حكمنا هذا

وأما النثر فقد كان أبو العيناء سباقاً فيه ، وتمتاز كتابته بأنها تارة تكون مفرغة فى قالب فكاهى مضحك ، تقرؤها فلا تكاد تملك نفسك من الضحك ، ولكنه إذا أفرغها فى قالب الجد أتى بالفقر القصيرة حينا والطويلة حيناً آخر ؛ وكثيراً ما تكون مرسلة ، وقد يقيدها بالسجع . فأسلوبه من السهل الممتنع كما يقولون ، ويكفيه فى منزلته من البلاغة تعجب المتوكل منه ، إذ سأله : أ كان أبوك فى البلاغة مثلك ؟ فأجابه بقوله : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عبداً له لا يرضانى عبداً له . ونرى كاتباً معاصراً له يشهد له شهادة قيمة وهو محمد بن مكرم الكاتب قال : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع فقد ظلم . ونحن وإن كنا نعتقد أن فى كلامه غلواً مراعاة للصداقة المحكمة الأواصر بينهما ، إلا أن الحال التى وصف فيها أبا العيناء بالاجادة خليقة بتقدير النقد الأدبى لها . فاننا نرى الرجل يأتى برسائل ممتعة حقاً نعجب كيف صدرت عنه ، ولكننا لو علمنا أن الدافع له إحساسه بالكرم ، أو شروعه فى الطمع كما يقول ابن مكرم لا نستغرب هذا

وإنى أريد أن أؤيد كلامى بنماذج من رسائله ، ولقد كنت فى غنى عن هذا لما تقدم من أحاديثه وكتاباته ، ولكني لم أر بداً من الاتيان بنبذ يسيرة منها ، فمن رسائله الفكاهية : ما كتبه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان حينما أهدى اليه ابنه محمد دابة زعم أنها غير فارهة :

أعلم الوزير أعزه الله أن أبا على محمدا أراد أن يبرنى فعقنى ، وأن يركبنى فأرجلنى : أمر لى بدابة تقف للنبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عجفا ، وكالعاشق المجهود دنفا ، قد أذكرت الرواة عذرة العذرى ، والمجنون العامرى . يساعد أعلاه لأسفله ، ... مقرون بسماله ، فلو أمسك لترجيت ، أو أفرد لتعزيت ، ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، تضحك من فعله النسوان ، وتتناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول نق له من الشعير ، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق ، لروى بحق

وصدق ، عن جابر الجعفي ، وعامر الشعبي ، وإنما أتيت به من كاتبه الأعور ، الذي اذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، واذا اختار لغيره أخبث وأنزر . فان رأى الوزير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما ضحك مني ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطره العيب بقبحه ودمامته ، ولست أرد كرامه ، سرجه ولجامه ، لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يهديه ، أو ينقض ما يمضيه .

فوجه اليه الوزير برذونا من براذينه بسرجه ولجامه ؛ ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال الوزير شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وماهذا ثمنه لا يشتكى . فقال أعز الله الوزير لو لم أكذب مستزيدا لم أنصرف مستفيدا ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، فضحك الوزير وقال : حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة .

ومن رسائله الجدية ما كتبه الى عبيد الله بن سليمان بن وهب : أنا أعزك الله وولدي وعيالي زرع من زرعك ، إن سقيته راع وزكا ، وإن جفوته ذبل وذوى ، وقد مسني منك جفاء بعد بر ، وإغفال بعد تعاهد ، حتى تكلم عدو ، وشمت حاسد ، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعبا ، ولهم مجرسا . ولله در أبي الأسود في قوله : —

لا تهني بعد إكرامك لي فشديد عادة منتزعه

وتلك الرسالة كانت كافية في أن تطلق يد عبيد الله بالعطاء فوقع في رقعته : أنا أسعدك الله على الحال التي عهدت ، وميلي اليك كما علمت ، وليس من أنسأناه أهملناه ، ولا من أخرناه تركناه ، وقد وقعت لك برزق شهرين ، لتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقي أرزاقك ، إن شاء الله والسلام .

وكتب إلى الوزير أبي الصقر يشكره : أنا أعزك الله طليقك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذت بيدي عند عثرة الدهر ، وكبوة الكبر ، وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال ، والاخوان والأمثال الذين يفهمون في غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غياثا للناس خلت عقدة الخلة ، ورددت إلى بعد النفور النعمة ، فأحسن الله جزاك ، وأعظم حماك ، وقدمني أمامك ، وأعاذني من فقدك ، فقد أنفقت على مما ملكك الله ، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي ، والله عز وجل يقول لينفق ذو سعة من سعته ، فالحمد لله الذي جعل لك اليد العالية ، والرتبة الشريفة ، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسطفيها من عدلك ، وبث فيها من رفدك والسلام ؟

الزقازيق **محمود محمود خليل**

ملاحظة : يقول الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر : ان أخبار أبي العيناء قد جمعت في سفر جليل ، ولكني برغم بحثي لم أعثر عليه ، ولعله ضاع كما ضاع غيره من نفائس كتب الأدب التي لم تصل الينا ؟

وداع والد

للأستاذ محمود خيرت

أخوان ما آب المسافر منهما … حتى استطاب أخوه هجران الحمى
فالقلب بينهما الغداة موزع … حيران يخفق نشوة وتألما
ولشد ما يجد المفارق ما انتهى … من جنة اللقيا إليه جهنما
يا أكبر الأبناء خلف بعده … صبرا تقطع حبله وتصرما
لم تدر يوم البين ما فعل الأسى … بأبيك لما أن دنوت وسلما
عقد الذهول عن الكلام لسانه … فتكلم الدمع العصي وترجما
ومشى إليك مشردا متخاذلا … يأبى غليه الهول أن يتقدما
حتى إذا نأت السفين بركبها … وغدوت بالبعد الطويل ملثما
بدت الحقيقة كالخيال فها أنا … إما أراك غدا أراك توهما
والدار تنعى أنسها الماضي وقد … أمسى على ظمأى النفوس محرما
يا من كساها من بشاشته سنى … عكست جوانبها صداه تبسما
للدور أرواح تحن لأهلها … وتطوف من خلل الحواجز حوما
وضاءة بهم الزمان فإن هموا … نزحوا تغشاها الظلام وخيما

***

كم كنت ترعاني وتأسو علتي … وتحول دون الداء أن يتحكما
ولكم سهرت علي فيه لياليا … لا عابسا فيها ولا متبرما
وتخذت منك وأنت مني عدة … عند الزمان إذا الزمان تجهما
فالبعد أقسى ما يمر به أب … ثقلت عليه همومه فتهدما
لكن رحلت ونصب عينك غاية … كانت أعز من البقاء وأكرما
وطنت نفسك في أمانيها على … أن تركب الأخطار كي تتعلما

محمود خيرت

سليل الأكابر

بقلم رفيق فاخورى

حَسِبَ الدنَى قيدتْ له   والكونَ مخلوقاً معهْ
يحيا له ويموتُ إذ   تطوى الليالى أجمعَهْ

* * *

لم يبك من حظٍ يجدِّ   د للفقير على المدَى
بؤساً ويرسم فى محيّـ   اه اكتئاباً سرمدا

* * *

فاذا أصاب الدمعُ فى   عينِ الشجىّ مسيلَهُ
رقصتْ بكفيه المنَى   فشفى بهنَّ غليـــله

* * *

ورثَ الجهالة فاستعا   نَ على الجهالة بالغنَى
ويُرَى وضيعاً وهو فى   زُخْرف الدراهم فوقنـــا

* * *

أبداً تواكبـــه وفو   دُ السعد أنَّى يمما
وتصـوغ أحلامُ الفرا   غِ له المكارهَ أنعُما

* * *

يمسى ويصبح سادراً   يأتيه سعياً رزقُهُ
ونظل نطلب ما حَيِـ   نا والمطالبُ حقــــهُ

* * *

تُفْدَى سلامتـه بأرْ   واح لنا لا تفتـدى
الويلُ للخَوَلِ الأصا   غرِ إنْ أضاعوا السيدا

* * *

إنا بنو الفقر ابتنيـ   نا بالمساعى مجــــدنا
وشروا بماء الوجـ   ـه حظاً خاسراً لا يقتنَى

* * *

ليس الغنَى ما أورثَ الـ   آباء أو ما خَـــلّفوا
فاشحذْ قواكَ لغَـدوةٍ   تُندى الجبينَ وتُرْعِف

* * *

يا ويحَ للقوم النيا   مِ على تصاريف الزمن
الوادعينَ الآكليـ   ـن جَنَى العبادِ بلا ثمن

* * *

يغـذو النعيمُ جسومَهمْ   أبداً فتعتـلُّ النُّهَى
لكأنهم إبلٌ هوا   ملُ غفـلةً أو دونهـا

* * *

جمعوا فما أغناهمُ   مالٌ عصارتُه النـدمْ
إن لم تكن بالنفس ذا   مالٍ فأنت أخو العدم

حمص   رفيق فاخورى

اسمى

[مهداة إلى الأستاذ الكبير المازنى]

للأستاذ إلياس قنصل

يروق له اصطدامىَ بالصعابِ   ويعجبُه اتصالىَ بالعـذاب
فيغرينى حديثٌ منه خافٍ   يخدِّرُنى بآمالٍ عِـذابِ
ويدفعُنى إلى بحر الرزايا   أصارع منه أمواج العباب
إذا سلمت نفسى من بلاء   أشارَ على سواه باطّلابى
أريد البعد عن كل اضطراب   ويأبى أن أكون بلا اضطرابِ

وقفتُ على كرامته حياتى   وصنتُ علاءه من كلِّ ناب
وفضّلتُ الكفافَ على ثراء   يلطّخُ عزّه برشاشِ عاب
وشدتُ له بآى الفنّ قصراً   متينَ الأسّ مرفوعَ القباب
تذيع قصائدى منه دوياً   ستصحبه إلى يوم الحساب

نصيبىَ ان أهيىءَ وهو يجنى   وينعم من جهادىَ بالثواب
فان أنشرْ مقالا أو كتاباً   تخايلَ فى مقالى أو كتابى
وإن أسعفْ صديقاً مستجيراً   تبختر بين أفواهِ الصحاب
وإن أبعثْ إلى أحد خطاباً   تخطّر فى الخطابِ وفى الجوابِ
وإن أرحلْ وان البثْ مكانى   تمايل فى المجىء وفى الذهاب
فلستُ حياله إلاّ خيالا   يجدُّ ـ متى يجدّ ـ إلى سراب
نكبت بشرِّه وأنا وليـد   ورافقنى أذاه فى شبابى
وسوف يظلُّ مرصوداً لرزئى   إلى مابعد درجى فى التراب ..

(عاصمة الأرجنتين)   الياس قنصل

القصص

صور من هوميروس

١٤ – حروب طروادة
أخيل يبكي بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتل بتروكلوس !

وانقلب هذا النصر المؤزر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون ، صيرته الصدمة الهائلة أشبه شيء بالهزيمة المؤكدة !

وبينما كانت أبصارهم زائغة تنظر إلى ما حل بمولاهم ، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترف فوق الساحة ، وتدوم على رؤوسهم ، تكاد تخطفهم ، كان هكتور وملؤه ينزعون عدة أخيل ، دون أن يلقوا أقل معارضة ! .. ..

ثم أفاق الميرميدون بصيحة من منالايوس العظيم ، اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدماً ، وناضل وحده عن الجثمان العزيز ، الذي كان هكتور يمنى نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله معرضاً هنالك ، يشهد له بالشجاعة المغتصبة ، والجراءة المزورة ، والبطولة التي لم يكن لها بأهل ؛ ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير ، وتغتذى بلحمه المر سباع طروادة وكلابها ! .. .. ..

وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع منالايوس ، ولكنه انقضاض الهموم المحزون ، وهجمة المرزأ المكدود ؛ فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد إذ أنقذوا من بتروكلوس الداهية ، ولم تكن صيحاتهم الوانية تهز بضعة من قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم .. ..

واستطاع منالايوس ، بعد لأى شديد وجهد أن يحمل الجثة ، يساعده مريونيس الكبير ، وأن يقتحما بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية ، يحمي ظهورهما أجاكس وجنوده

وذعر قادة الميلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس ، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون يشتغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم ، والرثاء لما حل بهم من بعده ، والفزع الأكبر للقاء أخيل .. .. لا يتقدمهم اليه قائدهم .. ..

ولجأ منالايوس إلى الحيلة ، وفكر من فوره في إثارة النخوة في قلب أخيل ، عسى أن يقدم فيقود أجناده ، ويتم النصر للهيلانيين ، فأرسل اليه أنتيلوخوس يحمل النبأ العظيم ، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما لغط به هكتور

ولو قد علم أنتيلوخوس ما يثيره هذا النعي في قلب أخيل ، ما آثر أن ينفذ اليه به ! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر ، وماد الشاطئ ، وتجاوبت لها جنبات الجبال ، ثم بكى ، فاربد أديم السماء واعتكر ، واحتلك الضحى وبسر ، وشاعت في العالم ظلمة أهول من ظلمة القبور !

« بتروكلوس ! .. .. »

أفي الحق يا أعز الأصدقاء أنك أوديت ! وا حرباً ! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمني ، وما تفتح عينيك لترى إلى أخيل ؟ ! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يا بتروكلوس ، حتى ولا يحيي ؟ ! .. .. ..

أ إلى حتفك كنت تستأذنني إذن ؟ .. ..

ويلى عليك يا بتروكلوس ! ويلى عليك يا أعز الأحباب ...

ولم يطق ، فطفق يحثو التراب على رأسه ، ويشد شعره ، فيكاد ينزعه ، ويرسل في السماء وفي الأرض والبحر صرخاته الداويات

وانتفض الموج ، وفار الماء ؛ وكأنما اتصل قلب أخيل باليم فاضطرب بما فيه من وجد ، واصطخب بما يؤوده من كمد ، وشاعت فيه أشجانه وأحزانه ، حتى وصلت إلى الأعماق .. .. حيث تأوى ذيتيس إلى زوجها ، رب البحار السفلية ، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها في أسطوله الراسي على هامش طروادة ، وأحست بما يأخذه من ألم ، ويمزق حشاه من عناء ؛ فصرخت ثمة صرخة اجتمع لها كل عرائس البحر ، وعذارى

الماء ، من حوريات نريوس [1] ، وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت الشبج ، ويذرين من نرجس عيونهن فيضاً من الدمع الدرى ، ثم انتظمن صفوفاً صفوفاً ، ورحن يتهادين وراء ذيتيس ، مرسلات فى الأعماق أناشيد الحزَن ، طاويات ذلك الرحب الذى يفصل بين مملكة مولاهن ، وبين شطئان إليوم ؛ حتى إذا كُنَّ عند الأسطول الهيلانى طفون فوق الماء ، فانقلبت اللجة بجمعهن جنة ، وارتد البحر بربهن فردوس نعيم ! !

وبرزت ذيتيس فرَقَت سفينة ابنها أخيل الباكى الآنَ الحزين ؛ وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون ، وجعلت تُهوِّن عليه أمر صاحبه ، وتصرفه عن هذه الحرب التى يفرق من هولها قلبها الخفَّاق أشد الفَرَق ، لما تعلمه منذ قديم من القتلة التى تخترم ولدها تحت أسوار طروادة ، كما أنبأتها بها ساحرات الماء . .

وأن أخيل أنة شديدة ، وقال لأمه : « أماه ! هكذا قدر لنا أن نلق ما حتمه القضاء علينا ، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال ، ولكن خبريني بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يمد بتروكلوس ينضرها ويزين حواشيها ، وما دام أعز أحبابى وأودائى ملقى فوق هذه الساحة النكراء ، ذبيحاً بين أشق الخصوم الألداء ! !

آه يا بتروكلوس ! لقد شفى هكتور غلة قلبه حين سفك دمك غادراً ، وحين انتزع عدتك غادراً ، وحين يفاخر بكل أولئك غادراً !

وهذه العدة يا أماه ! أيلبسها هذا الشقى وهى هدية الآلهة الى بليوس ، أبى ، رب الاعماق ، وهدية من أبى الى ؟ !

أبداً لن أعود معك الى حيث العار الأبدى ينتظرنى ، مالم أثأر لأوفى أحبائى بتروكلوس ، من هذا النذل ، هكتور ، ومالم أرو هذه الصمدة الظامئة من دمه النجس ، وأقذف فى وجهه بمفاخراته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم . . .

لا . لا ، لا تتحدثى الى عن أوبة تصمنا بالذل الى الأبد يا أماه ، وإنى لأقسم بالسماء ومن فوقها ، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان فى صدر هكتور ! »

وصمتت ذيتيس قليلا ، ثم لم تطق أن تخفى ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم . فأخبرته عما تحدثت به العرافات عام وُلد ؛ وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة ، والفجيعة التى لا تكون مثلها فجيعة

(1) النريد هم بنات نريوس أحد أرباب الماء ومنهم طائفة كبيرة تخدم ذيتيس ، أم أخيل

ولكن أخيل تبسم ابتسامة محزونة ، وتحدث الى أمه عن المجد الخالد الذى سيحمله اسمه آخر الدهر : « واستبشار الهيلانيين بعودتى لمناصرتهم ووضوح الحق وجلائه لأجاممنون إننى روح الجيش وحماسة الجند ، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين ! صه يا أماه ! فلن تزعجنى مخاوفك ، ولن تلقى فى روعى أقل الجزع . . . لأنه إن كان حقا ما تحدثين اليك به ، فأين يهرب أحدنا من القضاء ! ؟ ! »

وبهتت الأم مما صمم عليه ولدها ؛ ولما أيقنت أن لاسبيل لها إلى قلبه الجرئ ، بدا لها أن تعاهده على ألا يخوض الكريهة حتى تعود اليه من عند ڤلكان ، الألَه الحداد ؛ الذى ستذهب هى اليه تكلفه بعمل درع وخوذة تحملهما اليه ، ليحمياه فى كل يوم روع ! ! وعاهدها أخيل

وأمرت ذيتيس عذارى الماء فانثنين الى مملكة بليوس ، يحملن اليه أنباء ولده . أما هى ، فانطلقت الى ڤلكان . . . هناك . . . هناك فوق ذروة جبل إطنة ، حيث وجدته ينفخ فى لظى كيره الضخم ... يصنع الدروع والعُدد . . .

ولقيها الألَه الحداد بالترحاب ، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها ، ولم يأبه أن يصنع مثلها حتى للآلهة ! ! . . .

« وكيف لا ، وأخيل الحبيب سيدّرع بها وتحميه من أوشاب الطرواديين ، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس ، الذى تعلمين مما كان من أمره مع ڤينوس ما تعلمين . . لقد فضحنى السافل فضحته القادر . . . . . . [1] »

ولكن الساحة كانت تضطرب ، وجموع الطرواديين تأخذ الهيلانيين من كل فج ؛ وكانت حيرا ، مليكة الأولمب ، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل ؛ وكانت مينرڤا كذلك تهلع عليهم هلعا شديدا . . .

وتشاور الربتان ، واتفقتا على أن تُنفذا إرليس الى أخيل ، تأمرانه أن يخوض الكريهة فى جانب الهيلانيين . ولكنه قص على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول الى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة . . .

بيد أن حيرا أشارت على مينرڤا أن تنفذ الرسول الى أخيل يحمل اليه درعها ، وكان لمينرڤا ذرع اسمه ايجيس لم يَصنع مثله لأحد من قبلُ ڤلكان ؛ وأن يَنْهى اليه أنهما تأمرانه بالتوجه

(1) نشرنا هذه الأسطورة التى يقصدها هوميروس فى (الرسالة) من قبل وبحسبنا اليوم الاشارة اليها هنا

الى الساحة فيطلع عليها ليراه الطروادیون ، فانه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار ! !

وانطلق إيرليس برسالته الى أخيل ؛ فاهتز البطل من نشوة الطرب ، وشاعت الكبرياء في أعطافه لأنه سينال شرفا لم ينله أحد من قبل ، وذلك بأنه سيدّرع بقميص مينرفا ، المسرودة من حديد ! !

وعند ما نهض ليلبس الدرع رأى مينرفا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلا وضاءً من الذهب ، ثم تقوده الى الساحة ! !

وهناك ، وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها ، ثم أرسل في الآفاق صيحةً داوية ، كانت تنفخ فيها مينرفا فتزيدها قوة وعنفوانا ، فزلزل قلوب الطروادين وجعلها تدق في صدور ذويها كالنواقيس ! !

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل ، وما كادوا ينظرون الى هذه الآراد المُنشَّرة فوق رأسه ، والاضواء المتلألئة من إكليله ، حتى سُقط في أيديهم وارتعدت فرائصهم وولوا على أعقابهم مدبرين ! وكانت خيولهم المذعورة تولى هي الأخرى فتطأ الفرسان هنا وهناك ، وتسقط في الخنادق المحيطة بطروادة ، فتلقى فيها حتفها عن عليها ! !

وتوارت الشمس بالحجاب

فتحاجز الجمعان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب

وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنالايوس وزميله في الاسراع بجثة بتروكلوس الى مؤخرة الجيش ، حيث الأمان والاطمئنان ؛ فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه ... فبكى .. وبكى ... واجتمع حوله الميرميدون يبكون

ثم رثاه بكلمة دامعة ، ترجمت عن نفس مكلومة ؛ وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير ؛ وأخذوا جميعا في غسل الجثة المعفرة بالتراب ، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار والقرنفل ، ولفوها في مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض .

* * *

واجتمع قادة الطروادين يتشاورون في هدأة الليل ، فخطب بعضهم [1] ناصحا بوجوب التحرز داخل الأسوار في غد ، مخافة أن يبطش بهم أخيل وشياطينه ، لاسيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع بتروكلوس ، وهم لا بد مثترون له ، مهما كلفهم الأثئار من أرواح ودماء !

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم ، وكأن قتله بتروكلوس غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل ، وما قدر له مما سيلقاه من بطشة أخيل ... وهل غد ببعيد !! ؟ ؟

* * *

وفي هذه اللحظة أيضاً ، كان زيوس يتحدث إلى حيرا حديث الذي أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الآلهه الأكبر أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أديل له من الهيلانيين ومن الطروادين على السواء

وكانت حيرا تسمع إليه وهى تطفر فرحاً ! كيف لا ؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها في الغد ، فيصليهم عذابا ، ويجرعهم غصصاً ما ذاقوا مذ ترك الحلبة أمثالها ! ؟ ولتحزن ڤينوس ! وليحل غضب السماء على باريس ، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم . . .

* * *

وأشرقت شمس الغد

ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد في الأفق الغربي ، تحمل الدرع التي لم يصنع مثلها قلكان

حتى ولا للآلهة أنفسهم !

والويل لك ياهكتور ! !

(لها بقية) دريني خشبة

أبحاث طبية

مطلوب موظف مصري الجنس يكون حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية (القسم الثاني) على الأقل له دراية بالاصطلاحات الطبية ليعمل في قسم مباحث طبية بالقاهرة على أن يعين بالدرجة الثامنة مع العلم أن هذا التعيين لا يشمل الأطباء

وتقدم الطلبات (باللغة الانجليزية) مع التفاصيل الشخصية الخاصة بالخبرة الطبية إلى حضرة صاحب السعادة عميد كلية الطب بمستشفى قصر العيني في ميعاد غايته آخر نوفمبر سنة ١٩٣٥

(١) بوليداماس

غريب

بقلم حبيب الزحلاوى

لم يكن باقياً من سنة ١٩١٣ سوى شهر واحد وبضعة أيام وقتما وصلت مصر قادماً من دمشق هرباً من مطاردة الحكومة إياى

* * *

الليلة عيد، وأجراس الكنائس تدق، والناس بين داخل البيَع بوجوه تعلوها سيماء الرضى والايمان، وبين خارج منها مسرع الخطى إلى الفنادق الكبرى والمنتديات الخاصة تطلعا إلى الاشتراك فى حفلات العيد

كنت مع الماشين إلى النادى الشرقى وكأنى منساق معهم إليه؛ ولما دخلته حسبت الناس ينظرون إلى نظرات الاستيحاش والاستغراب

أهاجت فرحة الناس نفسي فتذكرت والدتى وأهلى وإخوانى وقد خلفتهم فى غير هذا البلد الذى كل مافيه ينادينى: « غريب »

تركت صحبى ومواطنى هناك؛ تركت قلباً وذكريات تتأجج نارها كلما طال البعاد، وما أحراها بالاضطرام ليلة العيد إذ ذهبت وحدى إلى ذلك النادى أقضى ساعات مع أناس يعرفوننى ولا أعرفهم من أبناء الجالية السورية

كان كل مافى النادى فى تلك الليلة ينم عن المرح والحبور، وكنت الصامت المستوحش الساهم وحدى بين الجمع، لأنى « غريب »

* * *

انقضت سنوات عدة كنت خلالها لا أنقطع عن زيارة النادى، إذ أصبح لى فيه إخوان وأصدقاء لا يقلون حبا لى ولا يقل تعلق بهم وإخلاصى لهم عن أولئك الأصدقاء والاخوان الذين خلفتهم فى دمشق

زرت النادى فى ليلة الأحد وأنا متأبط ذراع فتاة عرفتها فيه، وقد صارت لى زوجة، وصرت لها بكليتى، وعقدت حظها بحياتى، ووقفت على إسعادها وجودى، وأحسب أنى كنت فى تلك الليلة من أسعد الناس، وأوفرهم غبطة، وأحرصهم على تكييف كل شيء بالهناء المرفرف على نفسى؛ وحينما كان يطوف بذهني خيال والدتى وأنا وحيدها، وصورة شقيقتى المحبوبة كنت أحاول استهواء ذاتى وإقناعها بأن قد صار لى فى امرأتى حنان كحنان الأم، وألفة كألفة الأخت، فوق حب الزوج لزوجه، بحيث أضحى محالا أن يطوف بخاطرى طيف « الغريب » أو وحشة البعيد عن أهله ووطنه

* * *

طوتنى مصر كما طوت الآلاف من الناس الذين وفدوا مثلى عليها، فأقلمتنى بأقليمها، ونفخت فىّ روحها، وألهمتنى وحى بيئتها، فصيرتنى كأحد أبنائها أقوم بالواجب المفروض بمثل ما يقوم به كل مصرى مخلص حرّ؛ ولما كنت أعود بذاكرتى صوب الشآم، مسقط رأسى ومهد حداثتى، كنت أحس بالحرمان يمزقنى ويكبت روحى، وأشعر بالواقع يسترضينى ويتودد إلىّ..

حقاً لقد علمتنى مصر أن أرى فيها وطنى وأهلى، ولقد تعلمت منها كيف أبادلها الجميل بجميل والوفا بوفاء؛ لقد علمتنى كيف أحبها وكيف أحافظ على حبى مسقط رأسى ومهد ذكرياتى، وكنت أصيخ بسمعى دائماً إلى أنات قومى وأوجاعهم، وأسمى جهدى إلى مزجها بأنات إخوانى المصريين الموجعين؛ وكنت أعمل، وسأعمل على أن أجمل من تفاعلات تمازج الأنات المؤلمة ما يزيل العلة الموجعة

* * *

انقضت سنوات أخرى كنت لا أنفك خلالها عن المجىء إلى النادى الشرقى؛ وحدث فى عصر يوم من أيام الشتاء أن ذهبت اليه، وكنت متعب الجسم، مكدود القوى، موزع الخاطر، مشرد الفكر، فرحت تواً إلى صالة الرقص وانتحيت ناحية فيها أرفه عن خاطرى بقدح من الشراب

ما كنت لأعبأ بالراقصات والراقصين رغم مافيهم من رشاقة ودلال جذابين؛ وما كنت لأحس ضربات « الجازبند » المنيفة المؤذية للنفس لأنى كنت فى شاغل عن كل ذلك

طال بى الجلوس؛ هممت بالنهوض؛ رفعت رأسى عفواً وإذا بى ألمح سيدة جالسة قبالتى على قيد أمتار منى، ما كدت أتبينها حتى نهضت مسرعاً لتحيتها

عرّفتنى السيدة إلى زوجها، واكتفت بقولها عنى: « صديقنا » وذكرت اسمى، فكان هذا التعارف على ما فيه من

بساطة واقتضاب كافياً لاستذكار الزوج ، فنهض مسلماً سلام مودة وصداقة ، داعياً إياى إلى مجالستهما . . . . انطلقت ألسنتنا بالحديث ، تارة عن الحياة الزوجية وسعادتها القائمة على التضحية ، والتفاهم ، والطمأنينة ؛ وطوراً على الأبناء وعناء تربيتهم ، وعما يضحى الآباء فى سبيلهم من عواطف زوجية يستغرقها الحنان الوالدى . كنا نتكلم عن كل شيء ، وعن كل إنسان نعرفه فى لبنان بسرور ، ولم ننس الغدير وأحراج الصنوبر ، ودير « القرقفة » فى قرية كفر شيما مسقط رأس السيدة حيث عرفتها هناك ، وكنت ألمح من طرف خفى إلى حوادث الشباب ، ولم يصدنا عن الاسترسال فى التنقل بالكلام كالأطفال من موضوع إلى آخر إلا دعوة الزوج زوجه إلى الرقص معه ، واعتذارها بلطف اليه بحجة الرغبة فى الرقص معى رقصة « التانجو »

رقصنا . . . . . . وكنت إبان الرقص كالساهم الغارق فى حلم لذيذ ؛ كنت أنعم بالراحة كلها فى مخاصرة هذه السيدة التى تنبعث منها الطمأنينة إلى أعماق نفسى ؛ لم أكلمها ؛ لم أجتل محياها ؛ كنت نشوان بها ؛ لم أسمع كلمة منها ، بل شعرت بجسمها اللين البض يسترخى شيئاً فشيئاً بين ذراعى . كنا سوية كنبرة وتر مزدوجة عزفها موسيقى ماهر ، فصدرت كأنها من وتر واحد ، يدفع خطانا وينقلها نقلا ايقاعياً متناسقاً . . . . وقبل الانصراف تواعدنا على اللقاء فى النادى فى الليلة القادمة

* * *

طافت بى الخواطر ، ثم ألحت علىّ ، فآثرت العودة إلى البيت ماشياً لأطلقها فى أوسع مجالات الفكر

رجعت بى الذكريات إلى دمشق يوم بارحتها ويوم لذت بلبنان بقرية صغيرة رابضة فوق ربوة تطل على مهول « الشويفات » ثم البحر ، تكتنفها أحراج الصنوبر وقد انتشر منها أرج الأصماغ ؛ ذكرت ذلك الدير المهيب الشاهق الرابض فوق الربوة أشبه بقلعة شيدت لحماية الخيالات والأحلام ! ! وتراءت لى أطياف سكان القرية وهى تحج اليه متسلقة الربوة بهمة ونشاط ، يتهادون فى ابتسام الفجر الساحر المغبر تحية الصباح

ذكرت إقبال رجال القرية للسلام علىّ ودعواتهم إياى إلى زيارتهم . ذكرت الساعات الطوال التى كنت أقضيها بين الأحراج أفترش الأرض ، وأناجى الشجر ، وأملأ من جمال الطبيعة قلبى وروحى ؛ تراءت أمام عينى صور شيوخ القرية جالسين فى القهوة يدخنون النارجيلة ويحلمون ، والشباب يلعبون الورق أو يشربون ويغنون ؛ كنت أطرب لسماع أغنيتهم المستمدة من وحى روح الطبيعة الساذجة الهادئة ، والمعبرة عن دوافع الغريزة بأبسط الكلمات والاشارات

ذكرت تلك الفتاة القروية عائدة من الكنيسة بثيابها الفضفاضة ، وضفائرها المنسدلة على كتفيها ، ووجهها الخمرى الزاهر بنفحات الربيع ، وصدرها الناهد ، وقدها المشوق ، وخطواتها المتزنة الحازمة

كم كانت رائعة صبغة الخجل الوردية التى اصطبغت بها أذناها لما سألتها عن اسمها ، وهل فكرت فى صلاتها فى غير أهلها ممن تعرف من الناس ! ؟ لقد حيرها سؤالى فارتبكت وسكتت عن الجواب ؛ وذكرت أيضاً زيارتى لها فى بيت أهلها وكيف اعترفت لها بحبى وعاهدتها على الزواج ، وتلك الأوقات الحلوة التى كنا نقضيها تارة فى النقاش وقراءة الكتب ، وطوراً فى التطلع إلى المستقبل والتمهيد لبناء عش سعادتنا

تمثلت يوم عودتى إلى دمشق ، والاضطهاد الذى أصابنى من حكومتها ، وفرارى من السجن والتجائى إلى مصر بعد الحكم علىّ وعلى زملائى بالنفى المؤبد ، لا لشيء إلا لأننا من دعاة الاستقلال الظامئين إلى الحرية

ذكرت كل هذا والطريق يمتد أمامى ؛ كانت ظلمته تبعث فى نفسى رؤيا تلك الأيام التى ودعتها منذ سنين فى أرض الوطن وطويتها بين ضلوعى ، وبدالى كأن ماضى يبعث من جديد وينشر فجأة ؛ تجسمت أمامى الحوادث كأنما لم يمر عليها ساعات ، ذلك العهد الباسم الذى أمضيته وإياها ، خيل إلى أن هذا الماضى الماثل القريب قد ضاع منى كله ، كأن بينى وبينه برزخاً . . . لجوة الزمن ، والحنث بالعهد ، تفصل بيننا ! ! !

ارتدت بى الذكرى فجأة إلى النادى الشرقى ، فاستشعرت تلك الذراع الغضة منبسطة فوق كتفى ، والصدر الملىء ما برح يتموج مختلجاً بين ذراعى ؛ جاشت نفسى بالذكرى ، وعضضت شفتى ندماً وقلت : ليتنى ، ليتنى ما حنثت باليمين . . . . . .

* * *

ما كنت أحسبنى أستعيد مرح الصبا ونشوة الرقص ، وقد أرهقنى الزواج المبكر بأحمال من الرزانة ، وبأثقال من الوقار ، وبكل ما تفتعله أكاذيب العادات ونفاق التقاليد

لم أكن أنشد فى الرقص ما ينشده شبان ينتقلون كالنحلة من زهرة الى زهرة ، يرتشفون من ندى زهرات الحياة ما يرتشفون . . . لم أكن كعقلاء العزاب أو جهالهم أبحث عن فتاة فيها من أوصاف الجمال الجثمانى ، أو طيش الطباع النزاعة الى العبث واللهو ، أو وفرة المال للزواج ، بل كنت مكبوت النفس بحب قديم لم تقو صروف الزمان ومناسباته ولا تطورات الفكر على خنقه ؛ لا غرابة فى خمود ذلك الحب طوال السنين ، بل الغرابة لو لم يستيقظ ويستنهض فىّ دوافع الميول المستقرة فى أعماق قلبى بكامل ما فيها من قوى الحياة تهليلا للحب البكر البرئ

لقد كنت والسيدة أحرص ما نكون على إخفاء أمارات الحب فى عيوننا ؛ لم يكن فى مظاهرنا ما يلهم غريزة المرأة استشعار الواقع بدليل أن امرأتى لم تدرك شيئاً منه ؛ أما زوجها فقد كان له من أقداح الوسكى وأحاديث البورصة والمضاربات ما يشغله عنا ، فلم يع شيئاً من ذلك أيضاً ؛ وهكذا كانت تنقضى ليالى الاجتماع بمظهرين : مظهر النفس المتأججة بلاعج من حب باطنى ، ومظهر السكوت الدال على الاندماج الكلى فى وحدانية الحب المقدس ، وعلى التجاوب الروحى والتفهم الجسدى حين المخاصرة

لم يعد طبيعياً أن تطاوعنا عناصر الوجود على استدامة هذه الحال ، فلما همست أخفتَ همسة فى أذن « حبيبتى » أطلب منها لقاء على انفراد ، أومأت بهدب جفنها إيماءة الرضى وأتبعتها بلمحة من بسمة ارتسمت على جانب شفتها ، ونظرت الى نظرة طويلة ... ثم فتحت فاها كأنها تريد أن تقول شيئاً ، ولكنها أحجمت وأطبقت شفتيها ... ثم عادت فاشترطت أن يكون اللقاء فى الريف على ضفاف النيل ، وألا يرى أحدنا الآخر إلا فى الموعد المضروب ؛ رضيت بهذا الشرط الصارم وحرمانى منها طيلة عشرة أيام

* * *

عبثاً كنت أحاول إخماد حدة الأزمة النفسية التى ساورتنى ففزعت الى « الأقصر » أستمد السكون والهدوء من مشاهدة آثار المصور الخوالى فى وادى الملوك ، ولكن متى كانت صور الفن تصرف الذهن عن الصور الحية ، وكيف يهدأ قلب استفاق من هجمة الحب الأول على صراخ تأنيب الضمير ؟

عجبا ! لم جعلت اللقاء بعد عشرة أيام ودعمته ألا يرى أحدنا الآخر خلالها ؟ هل رمت من وراء هذا التباعد الى إثارة قوى الدفع والجذب التى تكون وليدة الآمال المرتجاة ؟ هل شاءت بباعث من غرائزها التى يعمل عقل الرجل مجتهداً فى حل رموزها أن تمتحن الفوارق بين اللقاء المكظوم فى صالة الرقص وبين اللقاء الموعود فى الريف ؟ هل أرادت أن نستجم للقاء كما يستجم الشاعر لابداع قصيدة ، والعابد لتتمة صلاة غير مسطورة فى كتاب ، والصوفى للاندماج فى وحدانية الله ؟ وإنما رغبت فى أن يكون لقانا اللقاء الأخير وموقف الوداع قبل السفر ! !

... ... دنا الموعد ، اقتربت ساعة اللقاء ، وقفت أنتظر قدوم سيارتها وأرقب دقائق الساعة بضجر ملحّ ، وأعدّ الثوانى باضطراب . تمضى الثوانى والدقائق والساعات ، بل العمر كله يمضى فى طريق الزمن والزمن لا ينفك منذ الأزل وسيبقى مدى الآباد يسير بنظام محكم الضبط إلا أنا ، أنا الشاذ المضطرب ، الصاخب الهادئ ، المفكر المبلبل ، أنا السعيد الحزين ، والباكى الضاحك ، أنا الذى أعيش فى أرض يلوح لى الآن أنها تدور دورة معكوسة ! ! !

لمحت سيارتها مطلة من بعيد فشعرت بدمى يندفع حاراً فى عروقى وسمعت بأذنى وجيب قلبى ... وقفت السيارة ، وإذ فتح بابها رأيت السيدة جالسة والى جانبها صبى صغير ، وكانت مرتدية ثوبا أزرق وقد أمالت رأسها الى جانب من السيارة ، رأيت فى عينيها الحالمتين فتورا ساحراً غريباً ؛ وقفت زهاء نصف دقيقة ذاهلاً مبهوتا لم أستطع النطق حتى بالتحية ؛ خيل الى أنى قد استجمعت فى هذه الفترة كل ماضينا ... والتفت فوقعت عيناى على الصبى ... وانقبض قلبى ؛ غام الضوء فى نظرى وشعرت بحزن طارئ يستولى علىّ ، كبحت جماح عواطفى ، وتعملت الابتسام ، وكانت قد أفسحت لى مجالا فوثبت الى المقعد ورأيتنى بالقرب منها

لم أدر السبب الذى حدا بى كى أستجيب وأصعد الى السيارة ؛ لقد غمرنى مرأى الصبى باحساس مؤلم قوى لم أكن أتوقعه حتى لقد وددت أن أفر بنفسى

وكأنما قد أشفقت علىّ ، فلم تتكلم ، بل مدت بأطراف الأنامل يدها وتلاقت يدانا فى مصافحة صامتة ، وكانت يدى باردة كالثلج بينما كان الدفء يسرى من كفها . ثم قربت يدها شيئاً فشيئاً حتى احتوتها يدى ، فضغطت عليها ضغطة قوية كأنما أردت

أن أهرب من برودة قارسة إلى حرارة الحياة

استأنسنا بالصمت ، ثم تلاقت عينانا ؛ كان فى نظراتى شبه استعتاب لمجيء الصبى معها ، وكأنها فهمت ذلك بالنظرة الخاطفة فشاءت أن تعدل عنها ، وتبسمت واهتزت يدها فى يدى تريد أن تذكرنى بأنى أضغط فى عنف عليها ، وتألق فى عينيها لمعان ... هذا اللمعان الذى أبصرته فى مقلتيها الكستنائيتين أول مرة عرفتها ، لمعان قوى كضوء باهر فى ليلة شتاء يسطع بين السحب ثم يختفى ... أجل ؛ بدا لى أننى أعثر فى تلك السيدة على أشياء ما رأيت قط مثلها فى امرأة من قبل ، وكان هذا محور حياتى معها وتاريخ حبى لها ... فيها أشياء كالنور حينا والحرارة حينا ؛ فيها صمت لا أدرى قراره ... وشممت عطرها القديم الذى طالما ملأت منه رئتى ، فاسترحت

* * *

السيارة ماضية بنا تنهب الطريق الممتد بين حقول القطن تظلله غصون الشجر ، لم أكن لأستطيع فى هذا الحين جمع خواطرى لأنها كانت تتناثر كالشرر ، إنما كنت أحس كأنى انفصلت عن العالم وانقطعت صلتى بالناس ، بالحياة وبالواجب أيضاً

هاهى إلى جانبى ، المرأة التى كنت ركزت عليها آمال الشباب ، هاهى مبعث الحلم البعيد الذى يصطخب فى قرارة تصوراتى ، هاهى الومضة الخاطفة التى باشعاعاتها تنير أجواء التفاؤل فى حياتى ، لقد حققت بوجودها جميع صور الخيال وأطياف الأحلام ، هاهى بروحها وجسمها إلى جانبى لا يحتجزها عن الالتصاق بى سوى طفلها الجالس فى هدوء كأنه يحلم مثلنا !

. . . علام أتجاهل حياتها الواقعة ، بل لم أتغافل عن الأمر الواقع الصارخ ؟ إن قوانين الحياة وتقاليدها البغيضة تسرى علينا سوياً ، فلماذا أحاول أن أبعث فى نفسها أنانية متمردة شرهة كالتى تعج بها نفسى ؟ كلنا أسرى العواطف ، عبيد الشهوات ، أفلا يليق بنا وقد ولجنا عالم الانسانية من أبواب الشعر أن نقيم لسيول الشهوة العمياء سدوداً تحول دون اجترافنا ؟ أجل ، إنى لأنزه الحب عن أن يكون مجرد مادة ، كما انى أتبرم به متى كان حرماناً صرفاً . يسمو الحب على الحقائق ولكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يستهين بها ؛ فلماذا تتألم نفسى من وجود الصبى بيننا ؟

يسمو الحب على الحقائق ، ولكنه متى نما واكتمل وازدهر ، وتسنم ذروته العليا فقد يخضع لهذه الحقائق عن رضى لأن سر عظمته فى اللين والخضوع ! !

لماذا أفزع من وجود الصبى ؟ لقد جاءت به لتفصلنى عنها ، لتضع سداً بينى وبينها ، لتنقذ حبى من التردى فى مهاوى الواقع والفناء فى ظلمة الحقيقة ... إنها تحبنى ، أشعر بهذا من رعشات يدها ، ورجفات جفنيها ، من شفتيها المختلجتين وعينيها المتقدتين شهوة وحسرة ، تحبنى ولكنها لا تريد الاستسلام ، تحبنى وتخشى إن هى استسلمت ثم افترقنا على مضض ، كما يقضى بذلك الواجب ، أن تعذبنى الحسرة وتشقيها اللوعة ، وأن تترك من شخصها فى خيالى صورة بشعة ملوثة تهبط بهذا الحب الرائع القدسى إلى درك الحيوانية الأولى ! !

إنها تريد أن تكون بكليتها لى ، أولا تكون لى أبداً ، وما دامت سترحل فى الغد ، عائدة إلى لبنان ، فهى تؤثر أن تحرمنى كل شيء على أن تسقينى من كأس بدنها الشهى جرعة واحدة لا تنقع غلتى ولا بد أن تسمم فى المستقبل كل حياتى

أواه ! لقد أدركت ما يجول بخاطرى ، ها هى تتفرس فى وتتأملنى وتشفق على منذ الآن ، ويكاد الدمع يطفر من عينيها

لماذا ؟ لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ ! أخذت رأسها بين ذراعى الأطف شعرها بينما كانت تنتفض ودموعها الحارة تتساقط على يدى

تجاه هذه الدموع لم أجد بداً من الاذعان لها ، أشفقت عليها كما أشفقت على ، سموت بحبى كما أرادت أن تسمو بحبها ، عولت على ألا أعترض القدر ، وأن أنزل ما أستطعت على حكم هذه المرأة التى علمتنى أن فى وسع الانسان أن يعيش بالروح أكثر مما يعيش بالجسد ، وأن الحب الكبير قد يستطيع أن ينتصر لا على المادة فقط ، بل على الزمن أيضاً

أرسلت نفساً طويلا فرج عن صدرى ، وضاعف أعصابى صلابة وقوة ، فتنحيت قليلا ومددت رأسى إلى حيث سائق السيارة وغمغمت بهذه الكلمات : « عد من حيث أتيت »

حدقت فى وأشرق وجهها بغتة ، ثم أطرقت برأسها وتلمست يدى ورفعتها برفق إلى شفتيها ، فشعرت بالقبلة الهادئة تجمع بيننا إلى الأبد

عادت بنا السيارة تنهب الأرض ، والأشجار تتعاقب ، والهواء يصفر ، والصبى يضحك ، وأنا أردد فى نفسى هذه الكلمات : غريب ! غريب ! غريب !

حبيب الزحلاوى

البريد الأدبي

أسبوع المتنبي في الجامعة المصرية

اعتزمت كلية الآداب أن تقيم أسبوعاً حافلا للمتنبي بمناسبة انقضاء ألف سنة على وفاته فى أوائل العشرة الثانية من شهر رمضان سنة ١٣٥٤ فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، وسيلقى أساتذة الكلية محاضراتهم على الترتيب الآتى :

الدكتور طه حسين	:	المتنبى فى شبابه (من مولده إلى اتصاله بسيف الدولة)
الأستاذ عبد الحميد العبادى	:	سيف الدولة
الأستاذ أحمد أمين	:	المتنبى وسيف الدولة
الدكتور حسن ابراهيم	:	كافور الأخشيدى
الأستاذ أحمد الشايب	:	المتنبى فى مصر
الدكتور عبد الوهاب عزام	:	المتنبى من لدن خروجه من مصر إلى وفاته
الأستاذ ابراهيم مصطفى	:	المتنبى والنحاة
الأستاذ عبد الوهاب حموده	:	أسلوب المتنبى
الأستاذ مصطفى عبد الرازق	:	فلسفة المتنبى

وسيتخلل هذه المحاضرات إنشاد بعض قصائد المتنبي وغناء قطع من شعره

سيلفان ليفي حجة التاريخ والحضارات الهندية

نعى الينا من باريس العلامة والمؤرخ الفرنسى الكبير الأستاذ سيلفان ليفى أستاذ التاريخ الهندى وحضارات الشرق الأقصى بالكوليج ده فرانس . توفى فى الثانية والسبعين من عمره بعد أن قطع زهاء نصف قرن بدرس الحضارات الهندية والصينية ، وكان مولده سنة ١٨٦٣ من أسرة يهودية ؛ وكان سيلفان ليفى علامة واسع الثقافة ، ولغوياً ضليعاً ، وحجة فى شؤون الحضارات الهندية والصينية واليابانية ، وفى حل المخطوطات والرموز الهندية والصينية القديمة . وقد ظهر منذ شبابه بميله إلى هذه الدراسة الفريدة ، فكتب «رسالته» لنيل العالمية عن «المسرح الهندى» وتاريخه وتطوراته وخواصه ، ودرس الديانة البوذية دراسة واسعة ، وكذلك الفلسفة البوذية والبرهمية ووضع عنها رسائل وبحوثاً عديدة ؛ وقام الأستاذ ليفى بعدة رحلات علمية واستكشافية فى بلاد الهند والهند الصينية واليابان وجاوه ، وفى بلاد التبت وسيبريا ، وكتب على أثر رحلاته الهندية كتاباً عن بلاد « نيبال » والتبت ، وهو يعتبر من أعظم كتبه إن لم يكن أعظمها . ثم نشر بعد ذلك مؤلفاً ضخماً عن « الهند والعالم » شرح فيه الدور الذى قامت به الحضارة الهندية فى تكوين الفكر الانسانى والحضارة الانسانية

وقد كان سيلفان ليفى أستاذاً فى معهد الدراسات العليا ، ثم أستاذاً فى الكوليج ده فرانس منذ سنة ١٨٩٤ ؛ ثم تولى رئاسة قسم العلوم الدينية فى معهد الدراسات العليا . وكان عضواً عاملا ومراسلا فى معظم الجمعيات العلمية الكبرى التى تعنى بالمشرقيات ، وكان منذ سنة ١٨٢٨ رئيساً «للجمعية الأسيوية»

ومنذ نحو أربعين عاماً يشغل سيلفان ليفى بين علماء المشرقيات مركزاً فريداً ، فهو الحجة الثقة ، وهو المرجع المفرد فى أخص المسائل التاريخية والاجتماعية والأثرية الهندية والصينية ؛ وفى قراءة اللغات الهندية القديمة ولا سيما السنسكريتية التى كان من أعلامها والتى تلقاها على أستاذه بورجيني أشهر علمائها فى القرن الماضى

وكان لسيلفان ليفى أكبر الفضل فى احياء كثير من اللهجات الأسيوية القديمة ، وكان لمباحثه وجهوده الدراسية والأثرية أكبر الفضل فى القاء ضوء كبير على الدور الخطير الذى قام به التفكير الهندى القديم فى توجيه التفكير الأوربى وفى تكوين الحضارة الحديثة . وأخيراً كان سيلفان ليفى حجة الشؤون الاستعمارية فى الشرق الأقصى ، ترجع اليه وزارة الخارجية الفرنسية فيما يمس الشؤون الاجتماعية والنفسية لشعوب الهند الصينية ، وفيما تقوم به من المشروعات الاصلاحية والعمرانية

وكان يتمتع بحيوية مدهشة ، فقد لبث حتى أواخر أيامه

منكباً على مباحثه ودراساته ؛ وقد حضر مؤتمر المستشرقين الأخير فى رومه وألقى فيه خطبة باللاتينية كانت موضع التقدير والاعجاب ؛ وكانت وفاته فجأة وفى ذروة القوة والنشاط

حول قبر الصفدى — الى الأستاذ على الطنطاوى

أذكر حين زيارة المرحوم زكى باشا لقبر الصلاح الصفدى فى حارة يهود صفد أن مؤرخ فلسطين الأستاذ عبد الله مخلص ذكّر الباشا أن الصلاح الصفدى ، خليل بن أيبك مرموس فى دمشق ؛ وكأن هذا التذكير لم يرق للباشا الذى يريد أن يزرع كل أقطاب الاسلام فى فلسطين فلعل فيهم سياجاً يدرأ ما يتتابعها من المحن — رحمه الله ! ولما لحظ عليه الأستاذ المخلص هذا ساق اليه حديثاً آخر ، وهو أن عالماً دمشقياً قبر فى صفد ، وكان معاصراً لابن أيبك ، وبعد مدة نقل ذووه رفاته إلى دمشق ؛ وأضاف : لعل عادة نقل الرفات كانت أمراً شائعاً فى ذلك الزمان ، ولا يستبعد أن يكون أهل الصلاح نقلوه من دمشق إلى صفد وقبروه فى هذا المنزل الذى كان عامراً بذكر لا إله إلا الله ! ! فضحك الباشا وقال بلهجته المصرية الحلوة : أيوه جبوه ! جبوه ؟ لقد فرجت عنى والله !

وكان من مساعى شيخ العروبة أن بنت جمعية الشبان المسلمين قاعة كبرى فى موقع ممتاز فى البلد لتكون غرفة مطالعة باسم « مكتبة الصلاح الصفدى » ، وعلى أن تضاف اليها غرفة مقببة تنقل اليها رفات هذا القبر المهين ، فتكون مزاراً لعارفى فضل ابن أيبك ولكن « الله يعمرك يا صفد » والسلام

صفدى آخر

نظريات الجنس والسلالة

صدر أخيرا فى انكلترا كتاب تثير قراءته كثيرا من الاهتمام وعنوانه : « نحن الأوربيين » We Europeans وضعه كاتبان عالمان هما چوليان هكسلى و ا . هادون ، وموضوعه استعراض نظرية الجنس والسلالة التى تثير اليوم كثيرا من الجدل . وهو على صغر حجمه يفيض مادة ووضوحا ؛ وقد استعرضت فيه النظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الانسان وما يكتنف تكوين الأمم الأوربية من العوامل ؛ وفيه شرح شائق لنظرية السلالة المزعومة التى اتخذت فى ألمانيا ستارا لأغراض السياسة . ويذهب المؤلفان الى أن البيولوجيا لم تبق بعد داروينية النزعة (نسبة الى دارون) بل غدت مندلية النزعة (نسبة الى مندل صاحب مذهب الوراثة) . والمعروف أن الوراثة البيولوجية تحدث خلال آلاف الوحدات ، ولكن الخواص العقلية والجسمية تتأثر أيضا بمؤثرات المحيط والطبيعة والتربية ، ومن الممكن أن يصقل العقل والخلق بالمران ؛ ويدلل المؤلفان بطريقة بديعة على أن معظم الخواص التى يزعم هتلر ودعاته أنها جنسية ترجع الى فعل السلالة ، إن هى فى الحقيقة إلا خواص ثقافية محضة . فان الانسان له وراثة اجتماعية كما أن له وراثة بيولوجية ، ومن الصعب علينا أن نستخرج الخواص القومية من غيرها ؛ بيد أننا نستطيع أن نعين المؤثرات الاجتماعية بطريقة حاسمة . ويدلل المؤلفان على نظريتهما بأمثلة جنسية وقومية واضحة غير اليهود الذين هم اليوم هدف لمطاعن الجنس والسلالة . ويذهب المؤلفان أيضا الى أنه لا توجد ثمة أجناس نقية ، ذلك أن الانسان يتأثر خلال الأجيال بمئات الأجداد والأسلاف ، ويشتق منهم جميعا ؛ والواقع أن كلمة « الجنس » قد فقدت معناها بالنسبة للجماعات الانسانية . وأما هذه المزاعم الحديثة التى تنسب الى الجنس والسلالة فليست سوى « علم مزعوم » ينظم لتستتر وراءه غايات السياسة

وفاة شاعر روسى

توفى أخيراً فى باريس شاعر روسى فتى هو بوريس بوبلافسكى . وباريس هى كما نعلم مهجر الروس البيض الذين يخاصمون البلشفية وعقائدها ، وفى باريس يترعرع أدب روسى ناشئ هو أدب المهجر ، يتأثر تأثيراً كبيراً بالأدب الفرنسى ؛ وقد كان بوريس بوبلافسكى من أعلام هذه الحركة الأدبية ومن أقوى ممثليها ، وفد على باريس حدثا ، وتكون فيها تحت تأثير الأدب الفرنسى ، فنشأ يمثل مزيجا بديعاً من الأدبين الروسى والفرنسى وظهر بنظمه القوى المؤثر حتى شبهه بعضهم ببعض أكابر الشعر الفرنسى المعاصر مثل رمبو وأبو لنير

وكان بوبلافسكى ينشر قصائده ومقطوعاته فى بعض المجلات التى يصدرها الروس المهاجرون مثل مجلة « الأخبار المعاصرة » ومجلة « تقينو » ومجلة « تسسلى » ؛ وكان علما بارزا بين أدباء المهجر على رغم حداثته . وفى سنة ١٩٣١ نشر مجموعة شعرية بالفرنسية عنوانها « الاعلام » Les Drapeaux . وقد ترك عند وفاته مجموعة شعرية أخرى لم تنشر ، وكذلك قصتين . وكان

الكتب

(١) المختار للأستاذ عبد العزيز البشرى

(٢) المرشد العربى للسيد سهيل السيد

للأستاذ محمد بك كرد على

خُصّ الأستاذ البشرى بالاجادة البالغة فى ضروب الكلام . وكتابه « فى المرآة » شاهد بتفوقه فى هذه الصناعة ، وأنه نسيج وحده فى أسلوب الجد فى الهزل والهزل فى الجد ، ساعده على هذا الابداع والامتاع تمكنه من ناصية اللغة ، وقبضه على قياد الآداب ، إلى ما فُطر عليه من ظرف شفاف ، إذا تنادر وإذا تهكم ، وأتى يودع الآن كتابه « المختار » بعض ما أبدع فيه من المقالات والمسامرات والمحاضرات ، فكان له المنّة على أبناء هذه اللغة بما ينوّع لها من أصناف القول ، وبما يحمل إلى مختلف الطبقات من ألفاظ ومعان وتراكيب لا يكادون يقعون عليها إلا فى كلام نبغاء البلغاء

البشرىّ كالجاحظ إذا عرضت له النكتة قالها لا يبالى ، وإذا اقتضته الحال أن يتهكم تهكم ، يدخل السرور على قلب قارئه ويعلمه ولا يشقّ عليه ، وقليل جداً فى فصحاء جيلنا من تهيأت له الذرائع إلى إتقان فنه هذا الاتقان ، وقليل مثله من عرفوا الحياة ولابسوها كما أرادت ثم قابلوها بالضحك والسخرية ، وقليل جداً من خبروا المجتمع المصرى خبرته ، فكتب ما توقع منه نفعاً فى رفع مستواه الأدبى

أحسن الأستاذ خليل بك مطران بقوله فى تقدمة كتاب البشرى إنه متحف حافل بالمفاخر ، وإن كل طرفة من طرفه جديرة بأن تطالع فى تدبر وروية وقد كسر كتابه هذا على ثلاثة أبواب « الأدب » و « الوصف » و « التراجم » . فعالج فى الأدب فصولاً فى القصص ، والنقد الأدبى ، والأدب بين القديم والجديد ، والأدب القومى وغير ذلك ، وفى باب الوصف جوّد فى مقالة « الراديو » ، كما يصفه أعرابى قادم من البادية و « فى الطيارة بين الماظة والدخيلة » وفى غيرها من الفصول . وفى التراجم ترجم لحسين رشدى باشا من رجال السياسة وللشيخ على يوسف من أرباب الصحافة ولمحمد بك المويلحى من أهل الأدب . ترجم لهم بروح جد فكانت ترجمته على مثال التراجم المتعارفة . أما يوم ترجم « فى المرآة » مثلا للشيخ أبى الفضل

بوبلافسكى أيضا كاتبا مجيداً وباحثا ؛ وكان حركة مضطرمة ، وقد توفى فى أوج قوته وعنفوان شاعريته ، وأحدث موته فزعا كبيراً فى أدب المهجر . وأثار بين مواطنيه فى المهجر أيما حزن وأسى

جائزة نوبل

منحت الجائزة الأولى من جوائز نوبل هذا العام ، وهى جائزة الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) لعالم ألمانى هو الأستاذ هانز شبيمان من أساتذة جامعة فريبورج : ومما يجدر ذكره أن هذه هى المدة الرابعة التى يرشح فيها الأستاذ شبيمان نفسه لنيل هذه الجائزة الشهيرة

والأستاذ شبيمان فى نحو السبعين من عمره ؛ وهو يخصص حياته منذ ثلاثين عاما للعمل فى سبيل التكوينات الميكروسكبية ، وقد نجح أثناء مباحثه فى نقل بعض الأعضاء الحيوية الى « الأجنة » وجمل فيها مخلوقات جديدة ، وهذا ما يسمى فى اللغة العلمية « بالخياليات »

وقد انتهت مباحثه فى هذه « الخياليات » الى نتائج تلفت الأنظار ؛ وكان أن استحق معها جائزة نوبل وقدرها نحو سبعمائة ألف فرنك فرنسى (أعنى نحو عشرة آلاف جنيه) ، وبذلك تنتهى هذه الحياة العلمية الباهرة بحياة رغد وثراء .

ومما يذكر بهذه المناسبة أن العلماء الألمان والنمسويين هم أكثر العلماء نيلا لجوائز نوبل وخصوصا فى النواحى العلمية المحضة مثل الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضية ؛ ولم يمر عام لم يظفر فيه واحد منهم أو أكثر بجوائز نوبل . أما جوائز نوبل الأدبية فأكثر ما يظفر بها الكتاب الإنكليز أو الأمم اللاتينية

الجيزاوى ولأحمد مظلوم باشا وللدكتور محجوب ثابت فانه أتى بالرقص المطرب ، وربما لم يكتب لأحد من المحدثين إن وُفّق الى مثل هذه الاجادة فى تصوير الصفات والحركات بهذه الطريقة

وبعد فان أدب الشيخ البشرى لا يتذوقه كما قال شاعر العرب مطران إلا من يدرسه ويعاود دراسته بروية وتبصر . وصاحبه واحد من بضعة المنشئين فى هذا العصر ، يحاولون بأسلوبهم – ولكل واحد منهم أسلوبه على حياله – أن يعيدوا الى العربية رونقها القديم من الجزالة والسلاسة ، والبعد عن السجع إلا إذا جاء عفو الخاطر .

ولعلهم موفقون الى بلوغ الغرض الذى سددوا سهام أقلامهم اليه .

— ٢ —

أعجبنى من هذا الدليل فى القسم الاسرائيلى منه وصف عمال اليهود فى فلسطين و « لعل أرفه حياة يعيشها عامل فى العالم كله هى حياة العامل اليهودى فى فلسطين » بفضل « الهستدروت » أى النقابة العامة لعمال اليهود . وهى جمعية توزع العمل على العمال وتدافع عن حقوقهم وتكره أصحاب الأعمال على التقيد بأنظمتها وتؤمن حياة العمال وتجد لهم عملاً وتوزع العمل بينهم فى الأزمات وعند تكاثر العمال وهبوط الأعمال . وللهستدروت شركات تعاون وقرى يعيش ساكنوها عيشة اشتراكية . قال ان الفلاحين فى القرى الاشتراكية يعيشون حياة غريبة الشكل بالنسبة للشعوب الأخرى . خصوصاً الشعوب العربية . فهم لايتناولون أجراً ولا يعرفون قيمة الدراهم . بل يعملون فى قراهم بدون أجر ، يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتنزهون ويتطببون ويتزوجون ويتناسلون ، من غير أن يكلفوا بدفع فلس واحد ، لا يعترفون برئيس ولا زعيم ، ولا يحملون للاديان السماوية سلطاناً كبيراً عليهم ، وكلهم فى نظر اخوانهم يتساوون فى الحقوق والواجبات ؛ وقد لاحظ الكاتب أنه يصعب على كل انسان أن يعيش عيشاً اشتراكياً كما يعيش هؤلاء إلا إذا كان على جانب من العلم والثقافة ، ويميل بفطرته إلى الحرية المطلقة ، على ألا يستعمل هذه الحرية فى خرق الأنظمة والقوانين ؛ ومن أهم شركات التعاون شركة المساكن ، ولها بنايات ضخمة فى البلدان التى ينزل فيها العمال مثل حيفا وتل أبيب ، وتتألف هذه البنايات من ١٥٠ بيتاً ، ولا يختلف بعضها عن بعض إلا بالسمة ، وكلها مبنية على طراز واحد استكمل شروط الصحة والفن

ويعيش الأولاد فى القرى الاشتراكية حياة مستقلة تختلف عن حياة الكبار ، فلهم بيوت ومطاعم خاصة ومطبخ مستقل ومربيات خصوصيات ، قال : والانسان الاشتراكى لا يعيش هنا لنفسه فقط ، بل للمجموع ، وعليه أن يجدّ لسعادة المجموعة الاشتراكية أوالأخوية الاشتراكية التى يعايشها ، ولا يحاول أن يعتلى على زملائه أو يتحكم فيهم ، فهو عامل وشريك ، ورأس مالى وفقير معدم فى وقت واحد ؛ والأغرب أن على هذا الانسان الذى يعيش بدون أمل فى الرفعة والسؤدد الشخصى أن يجد ويجتهد ، ويعمل بهمة ونشاط كما لو كان يعمل لمستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده ؛ وإذا لاحظ اخوانه فى الاشتراكية أنه كسول خامل ، يعمل أقل مما يقدر على عمله ، لا يتوانون عن افهامه بلطف وجوب مغادرتهم ، فان تجاهل أفهموه صراحة وحكموا بطرده ؛ ومتى زهد فى الحياة الاشتراكية تقدم له الجمعية نفقات سفره إلى المكان الذى يقصده ، وإن رغب احد الاشتراكيين فى زيارة أهله نقدوه نفقات سفره ذهاباً واياباً إلى أقصى الأرض ليعود اليهم بعد انقضاء مدة الأذن ، ومن كان له فقراء من أهله فى مدن أخرى ، تقدم له المجموعة الاشتراكية مبلغاً شهرياً لا يتجاوز الجنيهين ، وفى هذا الدليل فوائد كثيرة ينبغى للفلاح المصرى والشامى والعراقى أن يتعلموها ، وينسجوا على منوالها بما يلائم طباعهم وعاداتهم

محمد كرد على